ابن زيدون وشعره

تأليف
الدكتور محمد السعدى فرهود
المدرس فى كلية اللغة العربية

الطبعة الأولى
١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م

مطبعة الرسالة
٣ شارع حودة المقاول ـ عابدين
القاهرة

ابن زيدون وشعره

تأليف

الدكتور محمد السعدى فرهود

المدرس فى كلية اللغة العربية

الطبعة الأولى

١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م

مطبعة الرسالة

شارع حودة المقاول ـ عابدين

القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا « محمد » النبي الأمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وعلينا وعلى عباد الله الصالحين .

وبعد ؛

فقد عاش العرب الأماجد في بلاد « الأندلس » حقبة من الزمان ، يعلون كلمة الله ، ويرسون قواعد العدل والحق ، ويرفعون لواء الحضارة ، ويدفعون بالعلم والمعرفة إلى سائر « أوربا » .. ثم تقلصت أمجادهم في هذه البلاد ، وغربت شمسهم حين شغلوا عن أمر الله بأمور الدنيا ، وازينت لهم هذه الدنيا خضراء رائعة ، فانصرفوا إليها ، وتكالبوا عليها ، وتخاصموا وتحاربوا من أجلها ، حتى أهلكتهم ، وباتوا يندبون حظوظهم ، ولات حين مندم !

و « ابن زيدون » شاعر مجيد من شعراء هذه الديار ، وكاتب قدير من أعظم كتابها ، ووزير خطير من وزراء ملوك الطوائف ، وهو ـ بأدبه وبحياته ـ يفرض على مؤرخي الأدب أن يتناولوه ، وعلى النقاد أن ينقدوه .

وهذا الكتاب قد خصصناه بشعره ، وقدمنا فيه فصولا ملخصة وافية ، عن عصره ، وحياته ، وأدبه ، وأتبعناها بعدد من قصائده ، شرحناها ، وجلوناها ، وعرضنا مجاليها الفكرية ، والتصويرية ، والفنية ، وجعلناها « نماذج » تمثل جماعها فن « ابن زيدون » الشعري ، وتطيف بأغراضه ، واتجاهاته ..

ومن الله التوفيق والسداد ؟

القاهرة { ٥ من رجب ١٣٨٩ هـ
١٧ من سبتمبر ١٩٦٩ م } السعدي

عصر ابن زيدون

عصر ابن زيدون*

الأندلس :

هي هذه البلاد التي تضم الآن «إسبانيا» و«البرتغال» (شبه جزيرة «إيبريا»)، في الجنوب الغربي من القارة الأوربية، قبالة «المغرب الأقصى»، في الطرف الشمالي الغربي من القارة الإفريقية.

وقد أطلق العرب اسم «الأندلس» على هذه البلاد كلها، وهو أصلا اسم للجزء الجنوبي منها؛ لأنه كان أول جزء من هذه البلاد نزلوه.

وهذه اللفظة «الأندلس» أصلها (Wandlochia) = فاندلوشيا، أو واندلوشيا)، وهو اسم للأمة التي نزلت هذه البلاد في القرن الخامس الميلادي. ومع الحركة اللغوية تحولت إلى (أندلوشيا ـ أندلوسيا ـ أندلس) وألحق العرب بها الألف واللام، فصارت إلى «الأندلس».

الفتح العربي :

في سنة ٨٧ هـ كان «موسى بن نصير» عاملا في «المغرب الأقصى» للخليفة الأموي «الوليد بن عبد الملك» (٨٦ – ٩٦ هـ)، وكان موسى قائدا طموحا، فكر في غزو أوربا كلها، فلما استقر له الأمر بالمغرب كلف نائبه على «طنجة»: «طارق بن زياد» عبور المضيق ـ الذي سمي باسمه فيما بعد ـ

---

* اعتمدنا في دراسة عصر ابن زيدون وحياته على الكتب الآتية :

(١) المقتبس في تاريخ الأندلس لابن حيان (٤٦٩ هـ).

(٢) قلائد العقيان للفتح بن خاقان (٥٣٥ هـ).

(٣) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام (٥٤٢ هـ).

(٤) المغرب في حلى المغرب لابن سعيد (٦٨٥ هـ).

(٥) البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى المراكشي (ق ٧ هـ).

(٦) مقدمة ابن خلدون (٨٠٨ هـ).

(٧) نفح الطيب للمقري (١٠٤١ هـ).

إلى بلاد « الأندلس »، وبدأ الفتح العربي لهذه البلاد في سنة ٩٢ هـ ، وانتهى في حوالى عام . ومنذ سنة ٩٣ هـ إلى سنة ١٢٨ هـ صارت هذه البلاد خاضعة للحكم الأموى فى « دمشق » وتوالى عليها عمال ، وصلت عدتهم إلى عشرين ، ومن أشهرهم : « السمح بن مالك الخولانى » ، « وعبد الرحمن الغافقى » ، و « يوسف بن عبد الرحمن الفهرى » .

عصر الأمويين :

وفى سنة ١٣٨ هـ وصل إلى « الأندلس » صقر قريش : « عبد الرحمن ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك » - الذى عرف فيما بعد باسم « عبد الرحمن الداخل » — فارا من جيوش العباسيين ، الذين أسقطوا حكم « دمشق » الأموى ، وقد وصل « الأندلس » بعد جولة له فى « مصر » وسائر الشمال الإفريقى مدة خمسة أعوام ، وساعده فى الاتجاه إليها ماقيل: إن جده « هشام بن عبد الملك » (١٠٥ — ١٢٥ هـ) أرضا بها ، كان قد وهبه إياها . وبتدبير من أنصار الأمويين من اليمانية وجنود الشام نودى بعبد الرحمن أميراً على « الأندلس » .

ومنذ ذلك الحين ، وفى غضون أكثر من ثلاثين عاما ، أخذ « عبد الرحمن » يوطد لنفسه ، ولأسرته ، حتى كون دولة عظيمة ، أقامت فى هذه البلاد نحوا من ثلاثة قرون (١٣٨ — ٤٢٨ هـ) ، تولى الحكم فيها ستة عشر أميرا أمويا ، من أشهرهم «عبدالرحمن الداخل » (حكم من ١٣٨ - ١٧٢هـ) و «هشام » ابنه ، الذى كان ساعده الأيمن (حكم من ١٧٢ - ١٨٠ هـ) ، و «الحكم الأول » بن هشام (حكم من ١٨٠ — ٢٠٦ هـ) ، و « عبد الرحمن الثانى » بن الحكم (حكم من ٢٠٦ - ٢٢٨ هـ) ، وفى عهده قدم « زرياب » المغنى من المشرق ، وأسهم فى وضع الموسيقى الأندلسية ،

أو ـ كما يقول «ابن خلدون» في مقدمته ـ رسم الأندلسيين أسلوبا في الغناء يتناقلونه إلى أزمان الطوائف(١) .

ومن أشهر أمراء الأمويين «عبد الرحمن الثالث» بن محمد بن عبد الرحمن الثاني (حكم طويلا من ٣٠٠ — ٣٥٠ هـ)، وهو أول من تسمى بـ (أمير المؤمنين) في هذه البلاد، وسمى نفسه «الناصر». وتولى بعده ابنه «الحكم الثاني المستنصر» (حكم من ٣٥٠-٣٦٦ هـ)، وفي عهدهما بلغت البلاد أوج المجد السياسي والاجتماعي والعلمي، والحكم الثاني هذا هو الذى دفع إلى «أبي الفرج الأصبهاني» ألف دينار ذهبا في كتابه (الأغاني). وبعد عهد ابنه «هشام الثاني المؤيد» (حكم من ٣٦٦ - ٣٩٩ هـ) بدأت الفتن تهز أركان هذا العصر، وتعصف بها، مما جعل «المستعين بالله» (حكم من ٤٠٠ - ٤٠٧ هـ) يستعين بـ «القاسم» و «علي» ابني «حمود» من الأدارسة بالمغرب، ويكل إليهما أمر قيادة البربر والعبيد، ثم عقد لـ «القاسم» على «الجزيرة الخضراء» ولأخيه «علي» على «طنجة»، وطمع هذا في الخلافة، مدعيا أن «هشام الثاني المؤيد» كتب له بالعهد، ودخل هو وأخوه «القاسم» قرطبة، حين اجتمعت لهما القوة، ولقب «علي» نفسه «الناصر»، وشارك «هشام الثالث المعتمد بالله» (حكم من ٤١٦ — ٤٢٨ هـ) السلطان في السنوات الست الأخيرة (٤٢٢ — ٤٢٨ هـ)، وبوفاة «هشام» هذا انتهى عصر الأمويين في هذه البلاد، مثلما انتهى قبل ذلك في بلاد المشرق .

---

(١) ومازال إلى اليوم عالقا عليهم، سمعنا منه حين كنا في «المغرب» من سنة ١٩٦١ — ١٩٦٣ م .

وهو ثروة عظيمة مازال تنتهب هنا وهناك، ولا تزيد الذاهبون عليها بما يصرح مالها.

عصر ملوك الطوائف :

فى أثناء ضعف الأمويين تغلبت فى كل ناحية جماعة من أهلها ، وقام فى كل جهة أمير ، فاستولى بنو جهور على (قرطبة) ـ عاصمة الأمويين ـ (٤٢٨ — ٤٦١ هـ) ، وبنو عباد على (إشبيلية) وغربى الأندلس (٤١٤ — ٤٨٤ هـ) ، ثم تغلبوا على بنى جهور وانتزعوا (قرطبة) منهم (٤٦١ — ٤٨٤ هـ) ، وأقام بنو حماد فى (مالقة) ملكاهم (٤٠٧ — ٤٤٩ هـ) وأقام بنو هود الجذامى ملكا آخر فى (سرقسطة) (٤١٢ — ٥٣٩ هـ) ، واستبد بنو زيرى بن مياد بـ (غرناطة) (٤١٢ — ٤٨٣ هـ) ، وغلب بنو الأفطس على (بطليوس) حتى سنة ٤١٥ هـ ، وبنو صمادح على (المرية) حتى سنة ٤٨٤ هـ ، وبنو صنهاج على (غرناطة) فترة ، وبنو المنصور العامرى على (بلنسية) ، وبنو طاهر ثم بنو عبيد على (مرسية) وابن يعيش ثم بنو ذى النون على (طليطلة) .

وتخاصم هؤلاء الملوك ، وتجادلوا ، ولم ينظر كل منهم إلا نفسه وإمارته وسلطانه وجاهه ، وتحاربوا على الأرض والنفوذ ، واستعان كل منهم على الآخر بثالث ، واستعان بعض منهم بالمسيحيين ، الذين كانوا يقتطعون البلاد جزءا جزءا ، وحاول كل أن يتشبه بالخلفاء فى الجاه والترف ، فقرب العلماء والأدباء والشعراء ، وجعل منهم ألسنة تنطق بمحامده ، والدعوة له ، وتسموا بالألقاب ، ولكنهم لم يصونوا مضمونها ، فوصلوا إلى حال لم تعجب شاعرهم ، فجعل يسخر منهم ومن حقيقتهم الصورية ، وهو يقول :

مما يزهدنى فى أرض أندلس	ألقاب معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة فى غير موضعها	كالهر يحكى انتفاخا صورة الأسد

بنو جهور فى قرطبة :

أ كانت الفتنة التى قامت فى (قرطبة) فى أواخر عصر الأمويين من خاضوا فيها من الول هؤلاء الأمويين ، ومن بنى « حمود » ، على السواء وكان فى المدينة رجل عاقل ، آثر البعد عن الفتنة والخوض فيها ، حتى إذا انتهت من شبها ، وأنفر النادى من الوجهاء اجتمع الناس عليه ، وحملوه على تقلد الأمر .

ذاك الرجل هو « جهور بن محمد بن جهور » ، المعروف بأبى الحزم ابن جهور ، ويرجع نسبه إلى « أبى عبيدة الكلبى » الذى قدم (الأندلس) مع الفتح العربى . وذلك الرجل هو الذى استوزر « ابن زيدون » ، وهو الذى حبسه ، ولم يقبل تذلله واستعطافه .

وكان « أبو الحزم » يسير سيرة أهل الفضل ، يتبدى للناس ، ويرفق فى معاملتهم ، ويعود مرضاهم ، ويسأل عن غائبهم ، ويشهد جنائزهم ، مع اهتمامه بنشر الأمن ، وضبط الأمر ، وجلب الرخاء .

توفى سنة ٤٣٥ هـ ، فتولى الأمر من بعده ابنه « أبو الوليد بن جهور » ، الذى نهج نهج أبيه ، واستقدم « ابن زيدون » من بعد فراره ، واستوزره ، وكان من قبل له صديقا ، ويقال : إنه هو الذى كان أعانه على الفرار من محبس أبيه .

ولما توفى سنة ٤٦١ هـ تولى ابنه « عبد الملك » الأمر ، ولم يلبث أن أن غلبه « ابن ذى النون » على (قرطبة) ، ثم غلبهما « المعتمد بالله بن عباد » عليها فى السنة التالية .

وقد عاشت (قرطبة) فى ظل الأمويين وبنى جهـــور مباءة وأمنا ، للأدباء والشعراء واللغويين والماجنين وعشاق الطرب وفى مجالس المجون والطرب كانت تحاك المؤامرات والدسائس والفتن .

بنو عباد فى إشبيلية :

فى فترة من فترات الفتن العاصفة تولى « أبو القاسم بن عباد » - وينتمى إلى بنى لخم العرب - قضاء « إشبيلية » ، وكان قضاء أشبه بالولاية ، فسار فى الناس سيرة عدل ونزاهة ، فأحبوه ، واجتمعوا حوله ، حتى إذا قدم « القاسم بن حمود » إلى « إشبيلية » طامعا فيها ، قامت المدينة - بزعامة قاضيها - تدفعه عنها ، وتثور فى وجهه وسلم الناس للقاضى بالأمر ، فقام به ، يؤسس له ، لنفسه ، ولأبنائه ، حتى توفى فى سنة ٤٣٣ هـ .

وخلفه ابنه « المعتضد بالله » وكان شديداً قاسياً جافياً ، ولما توفى سنة ٤٦١ هـ تولى الأمر من بعده ابنه « المعتمد بالله » وقد مال إلى الرف والتنعيم ، وكان ندى اليد ، رحب الصدر ، شاعراً يعشق الشعر ، ويأنس لمجيديه ، ويجتمع بهم فى دار أقامها لهم ، وجعل لهم يوماً يفرغ فيه إليهم ، وأعد لهم ديوانا تسجل فيه أسماؤهم ، وترصد جوائزهم حسب أقدارهم .

وكان « المعتمد بالله » طموحا ، يبغى ملك البلاد كلها ، زين له وزيره « ابن زيدون » ملك « قرطبة » ، فوجه إليها جيوشه ، وفقد فى سبيل الاستيلاء عليها ابنيه « الظافر » و « المأمون » ، واتخذها حاضرة لملكه . لكنه من ناحية أخرى غاب عليه « الأذفونش » ملك المسيحيين فترة ، واستأداه الضريبة ، ولما استولى « الأذفونش » على « طليطلة » ، رفض ضريبة « المعتمد بالله » ، وأرسل إليه رسولا يهدده بالزحف على « إشبيلية » إن لم يسلمها ، وغضب « المعتمد بالله » ، واستعد للقاء المسيحيين ، مستعيناً بالأمير « يوسف بن تاشفين » المغربى ، واستطاعا أن ينتزعا النصر من « الأذفونش » .

وتحت تأثير الدسائس والوشايات والأطماع أغار « يوسف بن تاشفين » على مملكة « المعتمد بالله » ، وانتزعها لنفسه سنة ٤٨٤ هـ ، واعتقله فى

« أغمات » ذليلا مقيدا، ومزق أسرته شر ممزق، ومات «المعتمد بالله» في سجنه سنة ٤٧٨ هـ. (وقيل ٤٨٨ هـ.) (١)

حالة الأدب :

أسهمت عوامل كثيرة في نهضة الأدب العربي في «الأندلس» بوجه عام، ومنها(٢):

١ — أن الأدب العربي وصل إلى هذه البلاد من المشرق، وهو في أوج ازدهاره، مما دفع الأندلسيين إلى تقليده ومحاكاته، ثم المنافسة فيه. حتى لقد نعت «ابن هانىء الأندلسي»: متنبي المغرب، ونعت «ابن زيدون»: بحتري المغرب، لما وجدوا من اتفاق كل مع صاحبه في منحاه.

٢ — أن طبيعة البلاد الساحرة وجوها الجميل وخيرها الموفور — طبعت الأدباء على الرقة، واقترن ذلك كله بجمال مصنوع، شهدته القصور المشيدة، والموائد المنصوبة، والبساتين المنسقة، ومساقط المياه المستنبطة، فتناولوا اللفظ القريب، والمعنى القريب، اللذين يتكافآن مع طبائعهم، وطبيعة بلادهم.

٣ — أن مجتمع هذه البلاد مزيج من أمم شتى، بعضها كان قارا في البلاد منذ أزمان، وبعضها وفد عليها مع الفتح والغلب، وهو خليط من عرب الجزيرة العربية، وعرب الشمال الإفريقي، وبرابرة المغرب. وصهرت هذا الخليط عوامل الصهر الاجتماعية.

---

(١) وبعد غلبة «ابن تاشفين» صارت الأندلس تابعة سياسيا للمغرب في الفترة من ٤٨٤ — ٥٤٠ هـ وهي فترة حكم المرابطين (أو الملثمين) الذين يعتبر «ابن تاشفين» هذا مؤسس دولتهم. وقد اتخذ قرطبة عاصمة الملك وتسمى بأمير المسلمين، ودعا للخليفة العباسي في بغداد على المنابر، واستمر يجاهد ويغزو ويستخلص البلاد من المسيحيين حتى توفي سنة ٤٩٣ هـ. وتولى الحكم بعده ابنه «علي» ثم «تاشفين بن علي» الذي مات مقتولا سنة ٥٤٠ هـ.

(٢) وانظر (ابن زيدون) لحسن جاد حسن ص ٤٠ وما بعدها — و (قصة الأدب في الأندلس) لمحمد عبد المنعم خفاجة — القسم الأول — ص ٢٤٨ وما بعدها.

٤ — أن اللغة العربية وثقافتها، لم تجدا منافسة فى هذه البلاد، مثلما وجدنا فى المشرق من اللغة الفارسية — بخاصة — التى فرضت ثقافتها على الدولة العباسية؛ ولهذا فتن الإسبان باللغة العربية وثقافتها، ونسوا لغتهم اللاتينية وهجروها. يقول «استانلى بول»:(١) «أخذ النصارى يبغضون لغتهم اللاتينية القديمة، ويصدفون عن آدابها، فتعلموا العربية، واستطاعوا بعد حين أن يكتبوا بها، كما يكتب العرب أنفسهم. وقدندد «يولوجيوس» نفسه بهذه الحال؛ إذ يقول: إن النصارى يولعون بقصائد الشعر العربى وقصصه، ويهجرون الكتاب المقدس وآثار القديسين. ومما يوجب الحزن والأسى [عنده] أن الجيل الناشىء لا يعرف غير العربية، فهو يقرأ كتب المسلمين بشغف، ويقتنى لها الخزائن، ويراها جديرة بالاعجاب، فى حين يبخل بنظرة إلى كتاب مسيحى. ثم يقول: لقد نسى النصارى لغتهم، ومن العسير أن تجد واحداً منهم فى كل ألف يكتب حرفا لاتينيا كتابة سائغة، وهم مع ذلك يستطيعون أن ينظموا شعراً عربيا رائعا».

٥ — أن بالناس حرصا على التمييز؛ فالعالم أو الأديب عندهم معظم من الخاصة والعامة، يشار إليه، ويحال عليه، وينبه عند الناس قدره، ويزاد فى إكرامه. والجاهل الذى لم يوفقه الله لعلم أو أدب يجهد أن يتميز بصنعة، ويربأ بنفسه أن يرى فارغا، أو عالة على غيره.

٦ — أن الأدب — شعره ونثره — استأثر باهتمامهم، فقربهم من الملوك والأمراء، ورشحهم للحجابة والوزارة، والكتابة والسفارة، فى حين لم تحظ الفلسفة ومسائل الفكر الصرف باهتمامهم، إلا بعد فترة من الزمان، حين توجه إليها قليل، فأثبتوا جدارة وتفوقا وتضلعا، فى الفلسفة، والمنطق، والرياضة، والهندسة، والموسيقى، والاجتماع، وغيرها، ومن أشهرهم: «ابن حزم»، و«ابن طفيل»، و«ابن رشد»، و«ابن باجه»، و«ابن زهر»، و«ابن خلدون».

(١) قصة العرب فى إسبانيا — ترجمة على الجارم — ص ٨٣.

حيـــاة ابن زيدون

حياة ابن زيدون

٣٩٤ - ٤٦٣ هـ = ١٠٠٣ — ١٠٧٠ م

ولادته ونشأته :

من قبيلة «مخزوم» القرشية وفد على بلاد «الأندلس» مع الفتح العربى وافد لم نعرفه بالاسم، وإنما عرفناه فى شخص «عبدالله بن زيدون» المخزومى الأندلسى، الذى ولد فى سنة ٣٠٤ هـ، ونشأ فى «قرطبة»، وتولى قضاءها، وتسمى باسم «غالب» وتكنى بـ «أبى بكر»، وكان وجيها ثريا، وتوفى فى سنة ٤٠٥ هـ فى «ألبيرة» قريباً من «غرناطة»، وهو يتفقد فيها ضياعه، ونقل إلى «قرطبة» ليدفن فيها.

وفى «قرطبة» أيضاً ولد لغالب هذا ابنه «أحمد»، الذى تكنى بـ «أبى الوليد»، فى سنة ٣٩٤ هـ، وتوفى سنة ٤٦٣ هـ.

وفى «قرطبة» أيضاً ولد لأحمد هذا ابنه «أبو بكر»، الذى تولى الوزارة فى «إشبيلية» لـ «المعتمد بالله بن عباد»، بعد خلو الوزارة من أبيه، وقتل يوم سقطت «إشبيلية» فى أيدى المرابطين سنة ٤٨٤ هـ.

ثلاثة - إذن - عرفوا بـ «ابن زيدون»، وهم :

١ - أبو بكر غالب عبد الله بن زيدون (٣٠٤ - ٤٠٥ هـ) .

٢ - أبو الوليد أحمد بن أبى بكر غالب عبدالله بن زيدون (٣٩٤ - ٤٦٣ هـ).

٣- أبو بكر بن أبى الوليد أحمد بن أبى بكر غالب عبد الله بن زيدون (؟ — ٤٨٤ هـ) .

فمن نقصد منهم بإطلاق اسم «ابن زيدون»؟

إنه أوسطهم : أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون ، الذى شهدت «قرطبة» مولده فى سنة ٣٩٤ هـ ، وقد جاء أباه على كبر ، فلقى من عنايته

ورعايته ما يلقاه أبناء العلية والوجهاء ، وربما تلقى عنه مبادىء المعرفة في غضون الأحد عشر عاما ، التي بقيت له عمره ، ثم استكمل «ابن زيدون» معارفه على أئمة عصره وبلده، فحصل كثيرا من أشعار العرب، وتواريخها ، وأيامها ، وأمثالها ، وفلسفتها ، مما تكشفت عنه أشعاره ، ورسائله بخاصة ؛ فالمطلع على هذه الرسائل يطلع منها على ثروة حافلة ، تبين عن معدن الرجل ومعارفه .

ومن أشهر أساتذته «أبو بكر بن مسلم بن أحمد بن أفلح» (٣٧٦ — ٤٤٣ هـ)، الذي كان راوية للشعر والأدب ، ونحويا قديرا ، وعالما بالعربية .

صلته ببني جهور :

نبه قدر «ابن زيدون»، وأصبح له في الأدب شأن ، وفي الشعر شأو ، وكان — على ماروى «ابن بسام» — قوى العارضة ، مفتنا في المعرفة ، حلو المنظوم ، عمدة في الظرف. واتصل بـ «أبي الوليد بن جهور» . فقدمه هذا إلى أبيه «أبي الحزم بن جهور» ، مؤسس الدولة الجهورية في «قرطبة»، فعينه كاتب دولته ، فكن له ولها ، وأبدى من الكفاية والألمعية مارشحه للسفارة ، وجعله أهلا للاستشارة ، ثم لم يلبث السعاة أن أفسدوا مابينهما ، فأمر «أبو الحزم بن جهور» بحبسه ، ومحاكمته .

معرفته بولادة :

وفي «قرطبة» أتيح لـ «ابن زيدون» أن يتصل بفتاة في مثل سنه (نرجح أنها ولدت حوالى سنة ٤٠٠ هـ) ، وهي «ولادة» بنت «المستكفي بالله» ، الأمير الخامس عشر في دولة الأمويين بالأندلس ، وكان أميرا جاهلا ساقط الهمة ، فلما توفي تبدت أبنته «ولادة» للرجال ، وتلاعبت بأعيانهم وأصفت لهم الود ، ثم صدت عما وراء الرضا .

وكانت « ولادة » ـ على ما يروى « ابن بشكوال » فى « الصلة » (١) ـ « أديبة ، شاعرة ، جزلة القول ، حسنة الشعر ، وكانت تناضل الشعراء ، وتساجل الأدباء ، وتفوق البرعاء . عمرت طويلا ، ولم تتزوج قط ، وكان مجلسها منتدى لأهل المصر ، وفناؤها ملعبا لجياد النظم والنثر ، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها ، ويتهالك الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها ، وهى على سهولة حجابها ، وكثرة منتابها ـ تخلط ذلك بعلو نصاب ، وكرم أنساب ، وطهارة أثواب » .

هام « ابن زيدون » بها هياما ، وشجعته هى ، وأطمعته من نفسها ، وكتبت إليه :

ترقب — إذا جن الظلام — زيارتى ؛
فانى رأيت الليل أكتم للسر
وبى منك مالو كان بالبدر مابدا ، وبالشمس لم تطلع ، وبالنجم لم يسر

قال « ابن زيدون » عن هذه الواقعة — فيما روى « ابن بسام (٢) — : « فلما طوى النهار كافوره ، ونشر عنبره (٣) ، أقبلت [ولادة] كالقضيب ، وردف كالكثيب ، وقد أطبقت نرجس المقل ، على ورد الخجل ، فملنا إلى روض مدبج ، وظل سجسج (٤) ، وقد قامت رايات أشجاره ، وفاضت سلاسل أنهاره ، ودر الطل منثور ، وجيب الراح مزرور ، فلما شببنا نارها ، وأدركت فينا ثارها ، باح كل منا بحبه . وشكا إليه ما بقلبه ، وبتنا بليلة نجنى أقحوان الثغور . . . فلما انفصلنا صباحاً ، أنشدتها ارتياحاً :

ودع الصبر محب ودعك ، ذائع من سره ما استودعك !
يقرع السن على أن لم يكن زاد فى تلك الخطا ، إذ شيعك !

---

(١) طبعت فى مدريد سنة ١٨٨٢ م .
(٢) ص ٣٧٧ .
(٣) يقصد بالكافور والعنبر البياض والسواد
(٤) الروض المدبج أى المزين بالأزهار ، والظل السجسج أى اللطيف المعتدل هواؤه .

يا أخا البدر سناء وسنا ؛ حفظ الله زمانا أطلعك !
إن يطل بعدك ليلى فلكم بت أشكو قصر الليل معك ! (١)

ثم حدثت بينهما جفوة ، استندت — فيما يروى — إلى أن « ابن زيدون » استمع إلى غناء من جاريتها « عتبة » ، أبدى به إعجابا ، وسألها — دون إذن من « ولادة » — أن تعيد الغناء ، فامتقع وجه « ولادة » ، وسرت فى كيانها نفحة نار أحرقتها ، ولم تستطع أن تخفى غيرتها ، ولعلها رأت بعين الأنثى ما أحرج أنوثتها ، فصرفت الجارية ، ثم مالت إلى « ابن زيدون » فقالت له :

لو كنت تنصف فى الهوى ما بيننا لم تهو جاريتى ، ولم تتخير
وتركت غصنا مثمراً بجماله ، وجنحت للغصن الذى لم يثمر
ولقد علمت بأننى « بدر السما » لـكن ولعت لشقوة بـ « المشترى »

ثم صرفته جزيناً ، كسيرا .

وفتحت قلبها لعاشق جديد ، هو الوزير « ابن عبدوس » ، وأثار صنيعها هذا « ابن زيدون » ، فحاول إرضاءها ، وطغرانها ، فلم ترض ، ولم تغفر ، فأتاها من ناحية أخرى ؛ كتب إلى « ابن عبدوس » ، مهدداً متوعداً :

أثرت هزبر الشرى إذ ربض ، ونبهته إذ هدا فاغتمض
وما زلت تبسط مسترسلا إليه يد البغى لما انقبض
حذار حذار ؛ فان الكريم إذا سيم خسفاً أبى ، فامتعض
فان سكون الشجاع النهو س ليس بمانعه أن يعض

---

(١) ينسب « المقرى » هذه الابيات لولادة ، ويساعده أن الخطاب فيها المذكر ، ونفضل (وكذلك « جودت الركابى » فى كتابه « فى الأدب الأندلسى » ص ١٧٠) نسبتها لابن زيدون اعتمادا على رواية « ابن بسام » و « ابن خاقان » وهما أقرب عهداً من الشاعر . اما خطاب المذكر فانه للتعمية والتجهيل .

ولكن الشجاع النهوس (أو ذكر الحيات العضوض على التشبيه) لم يعض وهزبر الشرى لم يزل رابضاً، بل ربما أسهم «ابن عبدوس» في التأليب عليه لدى الحاكم، ولم تفلح محاولة ابن «زيدون» هذه، فأعمل الحيلة، ولجأ الى جارية تحمل الرسائل بين «ولادة» و «ابن عبدوس»، وحملها رسالة — هي التي عرفت بالرسالة الهزلية — كتبها على لسان «ولادة» وفيها تقطع ما بينها وبين «ابن عبدوس» من صلة، وتتهكم به...

ويفتضح الأمر، وتزداد «ولادة» حنقاً على «ابن زيدون»، ويزداد «ابن عبدوس» كيداً له، ويزداد هو هماً وغماً، ويمسي يشوى على جمر الهوى، يعاني من حره ما يعاني.

ولعل الغيرة التي فجرتها حادثة الجارية المغنية لم تكن وحدها السبب في منصرف «ولادة» عنه، فقد شهدت بعيني رأسها مغرب دولة الأمويين، وهي دولة أبيها وأهلها، على يدي «ابن جهور»، وأركان دولته، الذين كان منهم «ابن زيدون»، فأثارت حادثة الجارية كوامنها نحوه [1]. ولعلها أيضاً إنما ابتذلت حجابها، وتبدت للرجال، لتلتذ بتعذيبهم، وتحاربهم بالسلاح الذي تجيد استعماله. وظلت على ولائها لذاتها، إلى أن توفيت في سنة ٤٨٠ هـ (وقيل ٤٨٤ هـ).

سجين قرطبة:

تعاونت عدة عوامل إذن ضد «ابن زيدون»، وزيد عليها ما قيل: إنه خان الأمانة، حين احتجن لنفسه إرث أحد الأعيان، فقدم من أجلها إلى المحاكمة، ولكنه — في إحدى رسائله إلى استاذه «أبي بكر بن مسلم» — نفى التهمة، وبين أنه أظهر للقاضي الذي حاكمه — «عبد الله بن أحمد المكوى» — «عقداً، كان المتوفى — قدس الله روحه ونور ضريحه — قد أشهد فيه أن لا مال له،

(١) وانظر (في الأدب الأندلسي) لجودت الركابي — ص ١٧١

وأن جميع ما تحيط به الدار ، التى توفى بعيد هذا الإشهاد فيها ، إنما هو للغانية التى فى عصمته ، حاشا دقائق بينها ، ومحقرات دينها وعلوم أن من أشهد بهذا عن نفسه ، وتقيد إلى مثله من لفظه ؛ فمحال أن يخلف عمداً ، أو يهلك عن وصية ، وسألته [أى القاضى] الشورى فيما أثبته من هذا العقد فلم يجبنى إلى ذلك » .

ما كانت هذه التهمة تكفى ـ وقد دفعها ـ لإلقائه فى غيابة السجن ، وإنما أحس أبو الحزم بن جهور منه دالة ، ظنها مصانعة . والرجل « أبو الحزم » يبنى دولة ، فله أن يأخذ بالظنة ، و « ابن زيدون » منه مقرب ، والحساد كثير ، فأفضى الرجل إلى نفر منهم بظنته ، فانتهزوا الفرصة ، وأثاروه ، واتخذوا من قضية خيانة الأمانة ، قرينة على خيانة الوطن . . . وحاول « ابن زيدون » أن يبرىء نفسه لدى القاضى فأعرض عنه ، ولدى الأمير « أبى الحزم » بأشعار وبشفاعات ، فما لان له ، ولدى ابنه « أبى الوليد » فما قدر هذا على أكثر من أن يعينه على الفرار من سجن أبيه .

الى اشبيلية :

وفر إلى إشبيلية ، منفيا باختياره ، وفى طريقه إليها كتب إلى أستاذه أبى بكر بن مسلم رسالته ، التى يذكر فيها أمر تهمته ، ويبرر لفراره ، وانتهى إلى « المعتضد بالله بن عباد » أمير إشبيلية ، الذى استقبله استقبالا حسناً ، ومكث لديه ثلاث سنوات ـ فيما نقدره ـ معززا مكرماً .

من المنفى الى الوزارة :

وتلقى ابن زيدون ـ بالرضا والغبطة ـ نبأ وفاة « أبى الحزم » فى سنة ٤٣٥ هـ ، وتقلد « أبى الوليد » سميه وصديقه الودود ، لحن إلى « قرطبة » ، لكنه لم يجازف بالعودة إليها ، وأنقذه من التفكير فى ذلك دعوة « أبى الوليد ابن جهور » له ، فلباه ولباها ، وعينه متوليا على شئون أهل الذمة ، فأحسن

الولاية، واتخذه سفيرا بينه وبين الملوك والأمراء فأحسن السفارة، ومدحه بقصيدته التى مطلعها :

ما للمدام تديرها عيناك   فيميل فى سكر الصبا عطفاك

وفيها يعلن فرحته بأميره، وأمله فى عهده، ويصرح بأهليته لأكثر مما أعطاه، فليعطه إذن، وليكف عنه الأحداث :

قلدنى الرأى الجميل، فإنه   حسبى ليوى زينة وعراك
وإذا تحدثت الحوادث بالرنا   شزرا إلى فقل لها : إياك

جفوة جديدة :

وحدثت بين الصديقين جفوة، حينما حاول جماعة من «بنى ذكوان» و«ابن جذام» الانتقاض على «أبى الوليد بن جهور»، وكانوا أصدقاء لـ «ابن زيدون». ويبدو أنه لم يبادر إلى إعلان براءته من عملهم، ثم حاول تصحيح موقفه، فى وقت كانت الشبه قد علقت به، واشتد قلقه من أجل ذلك، وعبر هو عن هذا القلق فى قصيدته العينية (١).

هل النداء الذى أعلنت مستمع   أم فى المنات التى قدمت منتفع

وفيها يقول.

إنى لأعجب من حظ يدوف بى   كاليأس من نيله أن يجذب الطمع
تأبى السكون إلى تعليل دهرى لى   نفس، إذا خودعت لم ترضها الخدع
ليس الركون إلى الدنيا دليل حجا؛   فإنها دول، أيامها متع

فهو يعجب ــ فى الصدارة ــ من ألا تكون نداءاته بالشكوى قد سمعت،

---

(١) ديوان ابن زيدون بتحقيق كامل كيلانى وعبد الرحمن خليفه ص ١٣٠.

أو قصائده الكثر قد نفدت ، ويعزو إلى الحظ سر عجبه من تشابه مطامعه في نيل ما لدى صديقه ويأسه منه ، ما دام يلقى منه إعراضاً ، ولذا تأبى نفسه أن تخدع بتعلات الدهر ، لأن الركون إليها هو في عين العقل ركون إلى متعة زائلة ، وعارية موقوتة .

ثم يقول :

لى فى الموالاة أتباع يسرهم	أنى لهم فى الذى نجزى به تبع
ألست أهل اختصاص منك يلبسنى	جمال سيماه ، أم مالى مصطنع؟!
لم أوت فى الحال من سعيى لديك ونى	بل بالجدود تطير الحال أو تقع
لا تستجز وضع قدرى بعد رفعكه ،	فالله لا يرفع القدر الذى تضع

فيعرف بنفسه ، ويدل على مدى إخلاصه وولائه ، فهو متبوع فى هذا لا تابع ، وغيره التبع ، فهم يسعون إلى إزاحته عن موضعه . ويقع فى نفسه الريب من أنه ما يزال - فى وهم صديقه - فى هذا الموضع ، فيسأله طالبا إليه أن يقر باختصاصه وبأهليته للاصطناع ، ثم يميل على الجدود والحظوظ ، كأنه يربأ بصديقه أن يعينها عليه ، ويصرح بحاجته إلى أن يبقى صديقه عليه ، ويدعى لديه أن فعله مرضى عنه من الله ، إذ لا يرفع الله قدراً يضعه الأمير .

ثم يقول .

إن الألى كنت من قبل افتضاحهم	مثل الشجى فى لهام ليس ينتزع
لم أحظ ، إذ هم عدا باد نفاقهم	إلا كما كنت أحظى ، إذ هم شيع
ما غاظهم غير ما سيرت من مدح	فى صائك المسك من أنفاسها فنع(١)

فيذكر حاسديه ، ويشجب مساعيهم ، ويصفهم بالشجى فى الحلوق ، ويسمهم بالمداورة والنفاق ، ويذكر أنهم اجتمعوا على الكيد له ، يدفعهم الحقد على منزلته لدى أميره ، والغيظ من مدائحه الذكية فى صديقه ، وكأنه ينظر قول « المتنبى » .

---

(١) صائك المسك : لاصقه . فنع : فنعة المسك ، ومسك ذوفنع : ذكى الرائحة

أزل حسد الحساد عنى بكبدهم　　فأنت الذى صيرتهم لى حسداً

وعالج « أبو الوليد بن جهور » الأمر بالأناة والتؤدة ، فلم يضطرب سريعاً للوشاية ، وأرسل صديقه « ابن زيدون » سفيراً لدى « ادريس الحسنى » فى « مالقة » ، فطاب المقام لـ « ابن زيدون » ولعبت فى نفسه عوامل الخوف إن هو عاد إلى « قرطبة » ، وبلغه — فى الوقت نفسه — أن حساده انتهزوا مغيبه ، فزادوا له كيدا .

ومن « مالقة » يرحل « ابن زيدون » إلى « بلنسية » ، ويلقاه أميرها « أبو عبد الله بن عبد العزيز » لقاء طيباً ، ثم يذهب إلى «طرطوشة» فى شرق «الأندلس» ، ومنها إلى « بطليوس » فى الجناح الغربى ، ويحتفى به أميرها « المظفر » ، وينشد هو فيها أرجوزته :

(يا دمع صب ما شئت أن تصوبا)

فى اشبيلية مرة أخرى

وتشده مطامحه إلى « إشبيلية » مرة أخرى ، ويستقبله « المعتضد بالله» سنة ٤٤١ هـ استقبالا حسنا ، كالمـــرة الأولى ، ويتخذه وزيراً ، ويسميه « ذا الوزارتين » (١) ويعد الزمان لـ « ابن زيدون » باعه ، فيستمر وزير «المعتضد بالله» حتى يتوفى هذا فى سنة ٤٦١ هـ ، ويستوزره ابنه «المعتمد بالله» وتتوثق الصلة بينهما ، ويطارحه « المعتمد بالله » الشعر ، ويساجله ، ويستجيزه ، ويجيزه ، فى مجالسه التى كانت تمتلىء بالشعراء .

وكان الحسدة بالمرصاد لـ « ابن زيدون » ، فدسوا عليه لدى « المعتمد بالله » أنه قال فى إثر وفاة أبيه ، ينعاه .

لقد سرنا أن النعى موكل　　بطاغية ، قد حم منه حمام

---

(١) وهو أحد ثلاثة تسموا بهذا الاسم، وثانيهم «ابن عمار» وثالثهم « ابن خلدون » جد صاحب التاريخ المشهور .

تجانب صوب المزن عن ذلك الصدى ومر عليه الغيث وهو جهام

ولا نريد أن نميل إلى أن الشعر مكذوب على « ابن زيدون » ، فالذى رواه هو « ابن بسام » ، وهو قريب عهد منه . ويخيل إلينا أن ناسا اجتمعوا على « ابن زيدون » ، وقد استخف به الطارب ، فكأنهم قالوا له : لو أن « المعتضد بالله » صنع بك ماصنعه « أبو الحزم بن جهور » بك فى « قرطبة » ماذا كنت تقول فى رثائه ؟ ، فأثاروا الرجل ، وأذكروه النقمة ، فقال ما قال من الشعر دعابة ، أو استرسالا مع منطق الرفاق ، ثم نقل الشعر عنه إلى « المعتمد بالله » .

واستفز الحسدة « المعتمد بالله » بقصيدة طويلة ، كتبوها فى رقعة ، وبعثوا بها إليه ، وبدءوها بهذا المطلع المثير :

يأيها الملك العلى الأعظم ، اقطع وريدى كل باغ ، ينئم(١)
واحسم بسيفك داء كل منافق ، يبدى الجميل ، وضد ذلك يكتم

ومنها (٢) :

فاحسم دواعى كل شر دونه ، فالداء يسرى إن غدا لا يحسم
كم سقط زند قد نما ، حتى غدا بركان نار ، كل شىء تحطم
وكذلك السيل الجحاف ، فإنما أولاه طل ، ثم وبل يثجم (٣)
والمال يخرج أهله عن حدهم ، وافهم ، فإنك بالبواطن أفهم
واذكر صنيع أبيك أول أمره فى كامل متهم ، فإنك تعلم

---

(١) ينئم : يئن أو يصوت أى يحيا .

(٢) والأبيات الاثنا عشر الآتية ملحقة على قصيدة (للدهر إن أملى فصيح أعجم) فى ديوان ابن زيدون تحقيق كامل كيلانى وعبد الرحمن خليفة ص ١٩٠ ، وهذه القصيدة فى مدح المعتمد بالله ورثاء أبيه ، والأبيات لا اشا كلها معنى ، ولا تسايرها موضوعا .

(٣) السيل الجحاف : الذى يكتسح كل شىء . يثجم : يدوم ويسرع مطره .

لم يبق منهم من توقع شره ، فصفت له الدنيا ، ولذ المطعم
فعلام تشكل إعن صنيع مثله ؟ ولأنه أمضى فى الخطوب وأشهم!
وجنابك الثبت الذى لاينثنى ، وحسامك العضب الذى لايكهم(١)
والحال أوسع ، والعوالى جمة ، والجد أشمخ، والصريمة أصرم(٢)
لا تركنن الناس موضع شبهة ، واحزم ؛ فمثلك فى العظائم أحزم
قد قال «شاعر كندة» فيما مضى بيتا على مر الليالى يعلم :
(لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم)(٣)

ولكن «المعتمد بالله» حسم الأمر حسما ، لم يتوقعه «ابن زيدون» ولا حاسدوه ، ويقال : إنه رد الرقعة كاتباً على ظهرها أبياتاً ، جاء فيها :

كذبت مناكم . صرحوا ، وجمجموا
الدين أمتن ، والمروءة أكرم
ختتم ، ورمتم أن أخون ، وإنما
حاولتم أن يستخف «يلملم»(٤) ؟
وأردتم تضييق صدر لم يضق . والسمر فى ثغر النحور تحطم
وزحفتم بمحالكم لمجرب ، مازال يثبت للمحال ، فيهزم
أنى رجوتم غدر من جربتم منه الوفاء ، وجور من لايظلم!

(١) لا يكهم : لايكون كهاما ، والسيف الكهام الكايل الذى لاغناء فيه .
(٢) الصريمة أصرم : أى العزيمة أقطع .
(٣) البيت لأبى الطيب المتنبى شاعر كندة .
(٤) يلملم : جبل فى ظاهر مكة ، وهو ميقات اليمن ، شبه به نفسه فى الحلم والرزانة والثبات .

أنا ذاكم . لا البغى يثمر غرسه عندى ، ولا مبنى الصنيعة يهدم
كفوا . وإلا فارقبوا لى بطشة ، يلقى السفيه بمثلها ، فيحلم

وإلى ذلك يشير « ابن زيدون » فى قصائد عدة ، ومنها قصيدته فى مدح « المعتمد بالله » الميمية ، حيث يعرض بحساده فى قوله (١) :

وأشد فاجعة الدواهى محسن يسمى ليطلقه الجريمة مجرم
تلق الحسود أصم عن جرس الوفا ولقد يصيخ إلى الرقاة الأرقم
قل للبغاة المنبضين قسيهم : ستردن من تصميه تلك الأسهم
أسررتم ، فرأى نجى عيوبكم شيحان ، مدلول عليها ، ملهم
وعبأتم للفسق ظفر سماية ، لم يعدكم أن رد وهو مقلم
ونبذتم التقوى وراء ظهوركم ، ففدا بغيضكم التقى الأكرم
ما كان حلم « محمد » ليحيله عن عهده دغل الضمير مذمم

وفى قصيدته التى مدحه فيها ، وعزاه عن أبيه ، يشير إلى خيبة سعى الحاسدين ، فيقول(١) :

يطيل العدا فى التناجى خفية ، يقولون لا تستفت،قدقضى الأمر
مضى نفثهم فى عقدة السعى ضلة ، فعاد عليهم غمة ذلك السحر

عودة الى قرطبة

ومضى « ابن زيدون » فى سبيله ، لا يبالى الدسائس والمكايد ، ولكن « قرطبة » كانت تلح ذكراها عليه ، وتسنح له الفرصة فى سنة ٤٦٢ هـ ، حين هجم « المأمون ابن ذى النون » أمير « طليطلة » على « قرطبة » ، فاستنجد « عبد الملك بن جهور » بـ « المعتمد بالله » ، وشجعه « ابن زيدون » على

(١) وسيأتى فى النصوص المختارة .

المغامرة ، فأرسل إلى « قرطبة » جيشا ، خشيه « المأمون » فانسحب ، بينما نزل الجيش الإشبيلي في ضواحي « قرطبة » ، وأخذ يتصل بالناس سراً ، ولم يزل بهم حتى ثاروا على « عبد الملك بن جهور » ، وفتحوا مدينتهم لجيش « المعتمد بالله » ، وبايعوه أميراً عليهم ، فانتقل إلى « قرطبة » ، واتخذها عاصمة لملكه ، ومعه « ابن زيدون » وزيره الأعظم ، الذي يعود إلى « قرطبة » ظافراً منصوراً .

ولكنه النهاية في إشبيلية

وتتفاقم في « إشبيلية » فتنة ، بعد أن غادرها « المعتمد بالله » ، فأرسل ابنه « سراج الدولة » لإخمادها ، في أواخر عام ٤٦٢هـ . وهنا يطل الحاسدون من مخابئهم ، فيزين الوزيران « ابن عمار » و « ابن مرتين » لـ « المعتمد بالله » أن يجعل « ابن زيدون » مستشاراً لابنه « سراج الدولة » ، فهذا أدعى لإنجاح مهمته . وكان « ابن زيدون » مريضاً ، ولم يشأ أن يقاوم إرادة « المعتمد بالله » ، حتى لا يثير شكه ، وخاصة أنه طلب إليه أن يستخلف ابنه « أبا بكر بن زيدون » في الوزارة . .

ثم ما يلبث الوزيران الحاسدان أن يزينا لـ « المعتمد بالله » أن يرسل في أثر « ابن زيدون » ابنه « أبا بكر » ، فذلك أضمن أن يبلغ « سراج الدولة » النصر ، والظفر القريب .

ولا يتراخى الابن في اللحاق بأبيه المريض ، وكأنما يرسله القدر ، ليحضر وفاته في الخامس من شهر رجب سنة ٤٦٣ هـ .

أدب ابن زيدون

أدب ابن زيدون

مصادر أدبه :

« لابن زيدون » شعر ونثر .

وتوجد عدة مخطوطات لديوان « ابن زيدون » ، منها فى دار الكتب ثلاث برقم (٤٩٦ - أدب) ، ورقم (٥٥٥ - أدب) ورقم (٧٦ - شعر - المكتبة التيمورية) ، ومخطوطة فى المكتبة الأزهرية برقم (٤٤٣-أدب). وفى دار الكتب أيضا مخطوطة رقم (٦١٧ - شعر - المكتبة التيمورية) ، عنوانها (تسديس النونية الزيدونية) « لأبى بكر محمد بن الحسن اللخمى ، الأندلسى » (ق ٨ ﻫ) .

وعن المخطوطتين الأوليين اعتمد « كامل كيلانى » و « عبد الرحمن خليفة » فى طبع (ديوان ابن زيدون) الذى أخرجته مطبعة مصطفى البابى الحلبى - سنة ١٩٣٢ م ، وألحقا بالديوان رسالتى « ابن زيدون » الجدية والهزلية ، وقد فاتهما - مع أسبقيتهما بالفضل - تحقيق روايات الشعر المختلفة ، وإثبات الفهارس الكاشفة ، وترتيب الأشعار ترتيبا تاريخيا ، أو موضوعيا .

واعتمد « محمد سيد كيلانى » فى تحقيق (ديوان ابن زيدون) - الذى أخرجته مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر سنة ١٣٧٥ ﻫ - ١٩٥٦ م فى طبعة ثانية - على مخطوطات الديوان كلها ، والأولى منها بخاصة ، وبذل جهدا أكثر فى التحقيق ، والفهرسة ، ومناظرة المخطوطات .

هذا ، ويعتبر كتاب (الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة) « لأبى الحسن

علي بن بسام ، (٥٤٢ هـ) مصدرا مهما لكثير من شعر « ابن زيدون » ورسائله ، والمؤلف أتم تأليف كتابه سنة ٥٠٢ هـ ، وفصل فيه القول فى أعيان الأندلس فى القرن الخامس الهجرى ، وقسمه إلى أربعة أقسام : قسم لقرطبة وما يجاورها ، وقسم لإشبيلية وأرباضها وغربى الأندلس ، وقسم لشرقى الأندلس وقسم للوافدين على الجزيرة ، وقد أخرجت مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القسم الأول من الكتاب سنة ١٩٣٩ م والرابع سنة ١٩٤٥م .

وكذلك كتاب (قلائد العقيان) للفتح بن خاقان الإشبيلي (٥٢٥هـ).

وفى كتاب (البيان المغرب فى أخبار المغرب) لـ « ابن عذارى المراكشى » (ق ٧ هـ) ؛ فى الجزء الثالث منه تاريخ الأندلس فى عصر ملوك الطوائف ، وكثير من شعر شعراء هذا العصر ، ونثر ناثريه . وقد نشره المستشرق « ليفى بروفنسال » فى « باريس » سنة ١٩٣٠ م . وفى كتاب (نفح الطيب) لـ « أحمد بن محمد المقرى » (١٠٤١ هـ) فى القسم الأول منه ، أخبار وأشعار ، منقولة عن الكتب السابقة .

وفى سنة ١٩٥١ م أخرجت مطبعة المناهل فى بيروت (شعر ابن زيدون) بتحقيق « كرم البستانى » ، ويضم جزءا من شعر الشاعر ، معروضا عرضا سريعا ، ومعتمدا على نسخة « كامل كيلانى وعبد الرحمن خليفة » .

وفى كتاب للدكتور « نيكل » ، بعنوان (مختارات من الشعر الأندلسى) — أخرجته مطبعة الكشاف فى بيروت سنة ١٩٤٩ م — مختارات من شعر « ابن زيدون » . وكذلك نجد مثل هذه المختارات فى كتاب ألفه « إميليو غرسيه غومس » عن (الشعر الأندلسى — بحث فى تطوره وخصائصه) وترجمه عن الإسبانية « الدكتور حسين مؤنس » ، وطبعته مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥٢ م ، وطبعته طبعة ثانية مطبعة لجنة

البيان العربى سنة ١٩٥٦ م ضمن مجموعة « الألف كتاب » ، ونشرته مكتبة النهضة المصرية .

الترسل :

لـ « ابن زيدون » نثر كثير ، معظمه رسائل ديوانية ، صدرت عن ديوان بنى جهور فى « قرطبة » ، وعن ديوان بنى عباد فى « إشبيلية » ، ومنه رسائل إخوانية ، ونقدية ، وتاريخية .

وقد اشتهر « ابن زيدون » برسالتيه : الجدية والهزلية .

الرسالة الجدية : كتبها من سجنه إلى سجانه « أبى الحزم بن جهور » يستعطفه ويُعتبه ، نثرا ، وشعرا بقصيدته :

الهوى فى طلوع تلك النجوم   والمنى فى هبوب ذاك النسيم

والرسالة الهزلية : كتبها — والغيرة تأكل قلبه — بلسان محبوبته « ولادة » . إلى غريمه الوزير « ابن عبدوس » ، يهزأ به فيها ، ويبت صلتها بغريمه .

والرسالتان تمثلان ثقافة « ابن زيدون » ، ومعارفه ، ومنهجه فى الكتابة ، وهو منهج لم يختص به ؛ لأن « ابن العميد » فى المشرق سبقه إليه ، ويبدو أن « ابن زيدون » أعجب بطريقة « ابن العميد » ، فاتبعها ، وإن اهتم بالصناعة اللفظية أكثر مما اهتم بالسجع ، وأغرق فى تضمين الأشعار والأخبار ، والأمثال والحكم ، وانحاز إلى جانب التنظير والأقيسة ، واستنباط ألوان التشبيه .

وقد وصف « ابن بسام » نثر « ابن زيدون » بأنه « غريب المبانى ، شعرى الألفاظ والمعانى » . ولعله يقصد من الغرابة التفرد بالصقل والتأنق .

ونذكر أطرافا من هذا النثر ، تعطى دليلا على منهجه فى الترسل .

من الرسالة الجدية

«يا مولاى وسيدى الذى ودادى له ، واعتمادى عليه ، واعتدادى به ، وامتدادى به ، ومن أبقاه الله ماضى حد العزم ، وارى زند الأمل(١) ، ثابت عهد النعمة . إن سلبتنى - أعزك الله - لباس نعمائك ، وعطلتنى من حلى إيناسك ، وأظمأتنى إلى برود إسعافك (٢) ونفضت بى كف حياطتك(٣) ، وغضضت عنى طرف حمايتك ، بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلى لك ، وسمع الأصم ثنائى عليك (٤) ، وأحس الجماد باستنادى إليك؛ فلا غرو قد يغص بالماء شاربه ، ويقتل الدواء المستشفى به ، ويؤتى الحذر من مأمنه ، وتكون منية المتمنى فى أمنيته ، «والحين قد يسبق جهد الحريص»(٥)

كل المصائب قد تمر على الفتى   وتهون غير شماتة الأعداء

وإنى لأتجلد ، وأرى الشامتين أنى لريب الدهر لا أتضعضع(٦) ، فأقول : هل أنا إلا يد أدماها سوارها ، وجبين عض به إكليله ، ومشرفى ألصقه بالأرض صاقله(٧) ، وسمهرى عرضه على النار مثقفه(٨) ، وعبد ذهب به سيده مذهب الذى يقول :

---

(١) ورى الزند : خرجت منه النار عند اقتداحه .
(٢) البرود (بالفتح) البارد
(٣) نفضت : طرحت وأبعدت .
(٤) إشارة إلى قول المتنبي :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى   وأسمعت كلماتى من به صمم

(٥) من بيت عدى بن زيد :

قد يدرك المبطىء من حظه   والحين قد يسبق جهد الحريص

(٦) إشارة إلى قول أبى ذؤيب الهذلى :

وتجلدى للشامتين أريهم   أنى لريب الدهر لا أتضعضع

(٧) المشرفى : السيف نسبة إلى مشارف الشام . صاقله : صانعه .
(٨) السمهرى : الرمح نسبة : إلى سمهر . مثقفه : مقومه .

حققما ليزدجروا. ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم(١)

هذا العتب محمود عواقبه ، وهذه النبوة غمرة ثم تنجلى(٢). وهذه النكبة سحابة صيف عن قليل تقشع . ولن يريبنى من سيدى أن أبطأ سيبه ، أو تأخر — غير ضنين — غناؤه(٣) ، فأبطأ الدلاء فيضاً أملؤها ، وأثقل السحائب مشياً أحفلها(٤) ، وأنفع الحيا ما صادف جدبا ، وألذ الشراب ما أصاب غليلا ، ومع اليوم غد ، ولكل أجل كتاب ، له الحمد على اهتباله(٥) ، ولا عتب عليه فى إغفاله .

فإن يكن الفعل الذى ساء واحدا فأفعاله اللائى سررن ألوف(٦)

ما هذا الذنب الذى لم يسعه عفوك ، والجهل الذى لم يأت من ورائه حلمك ، والتطاول الذى لم يستغرقه تطولك(٧) ، والتحامل الذى لم يف به احتمالك(٨) ، ولا أخلو من أن أكون بريئاً ؛ فأين العدل ؟! أو مسيئا ؛ فأين الفضل ؟! . . فكيف ولا ذنب إلا نميمة أهداها كاشح(٩) ، ونبأ

---

(١) البيت لأبى تمام فى مدح مالك بن طوق .

(٢) النبوة : الجفوة ، من نبا السيف ينبو أى ارتفع عن الضريبة .

(٣) غناؤه (بالفتح) : نفعه وفائدته .

(٤) أحفلها : أكثرها امتلاء بالماء .

(٥) اهتباله : اغتنامه .

(٦) البيت للمتنبى .

(٧) التطاول : التكبر . التطول : التفضل .

(٨) التحامل : التكليف بما لا يطاق . الاحتمال : القدرة على الحمل .

(٩) كاشح : عدو ، وكل من يضمر العداوة .

جاء به فاسق ، وهم الهمازون المشاءون بنميم(١) ، والواشون الذين لا يلبثون أن يصدعوا العصا ، والغواة الذين لا يتركون أديما صحيحا (٢) ، والسعاة(٣) الذين ذكرهم ، الأحنف بن قيس ، فقال : « ما ظنك بقوم ، الصدق محمود إلا منهم » . . . . أعيذك ونفسى من أن أشيم خلبا(٤) ، واستمطر جهاما(٥) ، وأشكو شكوى الجريح إلى العقبان والرخم(٦) ، فما أبسست لك إلا لتدر(٧) ، وما حركت لك الحوار إلا لتحن(٨) ، وما نبهتك إلا لأنام ، وما سريت إلا لأحمد السرى لديك(٩) . . . . .

من الرسالة الهزلية

« كلامك تمتمة(١٠) ، وحديثك غمغمة(١١) ، وبيانك فهفهة(١٢) ، وضحكك

---

(١) الهمازون : جمع هماز مبالغة فى الهمز وهو الغيبة : المشاءون : جمع مشاء مبالغة فى المشى والمشاءون بنميم : الذين يكثرون السعى بين الناس بالنميمة .

(٢) الغواة . جمع غاو وهو المضلل . أديما : جلدا .

(٣) السعاة : جمع ساع ، ويريد بهم من يسعون بين الناس بالفساد .

(٤) أشيم : أراقب ، من شام السحاب راقبه ليرى مكان إمطاره . خلبا : برقا لا يصحبه غيث .

(٥) جهاماً : سحابا لا ماء فيه

(٦) العقبان والرخم : من الطيور الجوارح ، وتشبه النسور فى الخلقة ، والعقبان جمع عقاب (بالضم) ، والرخم اسم جنس واحدها رخمة (مثل قصب وقصبة) . وسميت كذلك لضعفها عن الصيد ، لكنها تجد الجريح فتنهده

(٧) أبسست لك : رفقت لك

(٨) الحوار (وزان غراب) : ولد الناقة ساعة تضعه أمه ، أو إلى أن يفصل عنها

(٩) سريت : سرت ليلا ، والسرى : السير ليلا .

(١٠) التمتمة . التردد فى حرف التاء

(١١) الغمغمة : أن يسمع الصوت ولا يبين تقطيع الحروف .

(١٢) الفهفهة (بالفاء) : العى فى النطق .

قهقهة (١) ومشيك هرولة (٢)، وغناك مسألة (٣)، ودينك زندقة (٤)، وعلمك مخرقة (٥).

مساو، لو قسمن على الغواني لما أمهرن إلا بالطلاق(٦)

حتى إن «باقلا» موصوف بالبلاغة إذا قرن بك(٧)، و «هبنقة» مستوجب لاسم العقل إذا أضيف إليك(٨)، و «طويسا» مأثور عنه يمن الطالع إذا قيس عليك(٩)، فوجودك عدم، والاغتباط بك ندم، والخيبة منك ظفر، والجنة معك سقر، كيف رأيت لؤمك لكرمي وفاء، وضعتك لشرفي كفاء؟! وأنى جهلت أن الأشياء إنما تنجذب إلى أشكالها، والطير إنما تقع على ألافها؟! وهلا علمت أن الشرق والغرب لا يجتمعان، وشعرت أن المؤمن والكافر لا يتقاربان، وقلت: الخبيث والطيب لا يستويان، وقلت:

أيها المنكح الثريا سهيلا عمرك الله، كيف يلتقيان؟!(١٠). »

---

(١) القهقهة (بالقاف): الضحك الشديد العالى، والعرب تنسبه إلى ضعف فى العقل.

(٢) الهرولة: السير بين المشى والعدو. والمقصود أنه متعجل فى سيره.

(٣) مسألة: أى كدية واستجداء، فهو غنى مجتلب بطريق خسيسة.

(٤) زندقة: إلحاد. وهذه أخطر تهمة.

(٥) مخرقة: جهل وحمق.

(٦) البيت لأبى تمام.

(٧) باقل: مضرب المثل فى العى والبلادة.

(٨) هبنقة: مضرب المثل فى الحبال وضعف العقل، رووا أنه وضع عقداً من الودع فى عنقه لئلا يضيع، فلما نام أخذ أخوه العقد ووضعه فى عنقه هو، فلما استيقظ هبنقة نظر إلى أخيه وقال له: أنت أنا، ترى من أنا؟!

(٩) طويس: مغن ماجن، يضرب به المثل فى الشؤم؛ لأنه ولد يوم مات النبى، وفطم يوم مات أبو بكر، وختن يوم قتل عمر، وتزوج يوم قتل عثمان.

(١٠) البيت لعمر بن أبى ربيعة.

من رسالته إلى أستاذه

وهى الرسالة التى كتبها « ابن زيدون » من مهربه إلى أستاذه « أبى بكر ابن مسلم » يجلو فيها طرفا من حياته السياسية الأولى، مع « أبى الحزم بن جهور » ، ويضمنها رأيه فيما اتهم به ، ويدفع عن نفسه التهمة ، ويذكر استعطافه « أبا الحزم » يائسا منه ، ويحاول أن يبرر هربه ، ويعطف أستاذه عليه ، ومنها :

« . . . لم أستطع صبرا ، وعلمت أنى قد أبليت عذراً ، ولم يبق إلا أن يعذرنى « لبيد » وكاد ، ورأيت أن العاجز من لا يستبد ، فالمرء يعجز لا المحالة(١) ، ولم استجز أن أكون ثالث الأذلين : العير والوتد وذكرتُ أن الفرار من الظلم ، والهرب مما لا يطاق من سنن المرسلين ؛ قال « الله » — عز وجل — على لسان « موسى » — عليه السلام — : « ففررت منكم لما خفتكم(٢) » ، وقال الشاعر :

لا عار لا عار فى الفرار ؛ فقد فرّ نبى الهدى إلى الغـار

. . . وأنا الآن بحيث أمنت بعض الأمن ، إلا أن رز"ا(٣) من وعيد سقط إلىّ بأن السعى لم يرتفع ، وأن مادة البغى لم تنقطع ، وأن البصيرة مستحكمة

---

(١) هـذا مثل معناه أن مخارج الأمور لاتضيق إلا على العاجز الذى لايعرف وجوه الحيـل .

(٢) سورة الشعراء : آية ٢١ .

(٣) الرز . الصوت ، أو الصوت تسمعه من بعيد ، أو الصوت تسمعه ولاتدرى ماهو .

فى استرجاعى من الأفق الذى أحل به ، والجناب الذى أحط فيه ، . . . والذى أحبه منك ، وأثق فى المسارعة إليه بك ، لقاؤه [أى الأمير أبى الحزم] مجاريا ذكرى ، مفاوضاً فى أمرى ، . . . ولتكن بغيتك التى تدخرها عليها كلمة تأمين ، وإشارة إلى تأنيس وتسكين ، وتراجعنى بها ، فأظهر — بحيث أنا — آمنا ، وألقى العصا مطمئنا . . . » .

الشعر :

وضحت لنا فى شعر « ابن زيدون » عدة ظواهر :

أولا — أن هذا الشعر ترجمة أمينة عن حياته النفسية ، فقد أحب ، وكره ، ورغب ، ورهب ، وطرب ، وجد ، وهزل ، وملأت عواطفه عليه نفسه ، فانطلق يعبر عنها ، ومدته أحداث حياته التى تقلب فيها بين الأمل والألم ، والنعيم والحرمان ، بمضمون وجدانى ، هو له خاصة ، وإن اشتبه وعاؤه مع أوعية الشعراء الأندلسيين .

ثانيا — أن الطبيعة الأندلسية مدت ظلالها على هذا الشعر ، ولا غرو فى ذلك ؛ فقد تفيأها الشاعر ، واستروحها ، وكانت له فى قرطبة ، بخاصة مغان ومرابع ، يخلو إليها ، ويأنس فيها بمن يحب ، ولذلك استوحاها ، وناجاها ، واستمد منها أخيلته ، وخلع عليها من وجدانه ، فنطقت عنه .

ثالثا — أن أسلوبه — على الجملة — رصين ، حتى فى غزله ، ولا تنافى الرصانة ما يتطلبه الغزل من رقة ، فكأنما يجىء غزله تصويرا للحب العارم الجاد ، الذى شغف فؤاده ، فلم يتخلع فى غزله ، ولم يتخنث ، وكذلك سائر شعره شاعت فيه الرصانة ؛ لأن شعره — كما قلنا — ترجمة أمينة عن حياته النفسية ، وقد عاش طموحا إلى معالى الأمور ، وجر عليه طموحه مآسى كثيرة ، وحاول أن يروض زمانه ، ويذلل حظه ، ولا يستسلم .

رابعا — أن عمود الشعر العربى مرعى منظور عنده ، إلا فى المطلع الغزلى ، فقد تحرر منه « ابن زيدون » أحيانا ، واستهل قصائده بالخوض فى موضوعه ، كما فى قصيدته فى عتاب « أبى الحزم بن جهور » ، التى أرسل بها إليه من سجنه ، ومطلعها :

ألم يأن أن يبكى الغمام على مثلى ويطلب ثأرى البرقُ منصلت النصل

وكما فى قصيدته إلى صديقه الوزير الكاتب « أبى حفص بن برد » ، يشكو ويستعطف ، ومطلعها :

ما على ظنى باس يجرح الدهر ويأسو

وكما فى قصيدته فى مدح « المعتمد بالله » والتعريض بحساده ، ومطلعها :

الدهر إن أملى فصيح أعجم يعطى اعتبارى ما جهلت فأعلم

خامسا — أنه جال فى أغراض الشعر كل مجال ، وقد أحصى « على عبد العظيم(١) » هذه الأغراض(٢) .

ومجموع أبيات الديوان (٢٦٣٤) .

— الغزل	٨٥٠	بيت
— المديح	٧٥٦	«
— الإخوانيات	٢٨٦	«

---

(١) كتابه (ابن زيدون) ص ٣٦١ — وما بعدها — ط . الأنجلو المصرية ١٩٥٥ م .

(٢) ولاشك فى أنه بذل جهداً نقدره ونعرفه ، وقد بلوناه من قبل ، فبان لنا أنه مما ينبغى أن يأخذ به الباحث الأدبى نفسه أن يحتكم إلى الأرقام والإحصاء ، ويحاول استخراج دلالاتها ، على شرط أن يطوعها لصالح بحثه الأدبى ، وأن يحذر الولوع رهينة لها ، أولا ينسى أنه فى بحث أدبى أو نقدى ، وليس فى بحث رياضى .

— الرثاء	٢٣٩	بيت
— الشكوى	٢١٩	»
— المطيرات	١٤٧	»
— الهجاء	٧٢	بيتا
— العتاب	٤٢	»
— الوصف	٢٣	»

ومن هذا الإحصاء نقدر الغزل بنحو ثلث الديوان ، والمديح بمقدار قريب من هذا القدر ، وكلا من الإخوانيات والرثاء ، والشكوى ؛ بمقدار (العُشر) ، وكلا من المطيرات ، والهجاء ، والعتاب ؛ بأقل من هذا ، والوصف أقل القليل .

والظاهر أنه اعتمد الغرض العام من كل قصيدة ، وإلا فالعتاب والإخوانيات يتداخلان فى نواح كثيرة ، والوصف شائع فى كثير من شعر الشاعر ، ولا سيما الغزل منه .

سادسا — أن موسيقى الشعر تكاد تفرض نفسها على قارئه أو سامعه ، فهى تبهره وتشده إلى الاهتمام بها ، وتروعه بالجرس العام ، ومواكبة العبارة ، وانسجام الألفاظ ، وانسيابيتها .

وقد أحصيت أوزان شعره[1] ، إحصاء نأخذ منه أن الأوزان الطويلة استأثرت بمعظم الشعر ، وتركت الأوزان القصيرة مجالا ضيقا ، لا يجاوز (أربعمائة) بيت وإذا كان هذا يوجب الإقرار بطول نفس الشاعر ، فإنه هذا وحده ليس يكفى الحكم الذى اطمأننا إليه ، واعتبرناه من مقومات شعره .

---

(١) المرجع السابق .

سابعاً — من هذا الشعر مرشحتان ، كلتاهما فى ذكرى « قرطبة » وأيامها الأولى :

* سقى الله أطلال الأحبة بالحمى *

وستأتى : والأخرى مطلعها(١) :

تنشق من عرف الصبا ما تنشقا
وعاوده ذكر الصبا فتشوقا
وما زال لمع البرق لما تألقا
يهيب بدمع العين حتى تدفقا
وهل يملك الدمعَ المشوقُ المصبأ

وتمضى على هذا النسق عشرين متطلعاً ، يتذكر فيها أيام صبوته ، ومغانى حبه ، وما يعانيه من هوى غلاب ، فهو لا يلذ كأسا ولا لحنا ، وإنما همه وكده أن يتعرف أنباء محبوبته ، ويطمئن على سعادة أيامها ، ثم يبرىء نفسه مما اتهم به ، ويدافع عن مسلكه ، وهو يهرب من حبس « ابن جهور » .

فـ « ابن زيدون » أسهم فى هذا الفن وأظهر قدرة عليه ، تتكافأ مع قدرته على الشعر العمودى .

ومهما يكن القول فى أمر الموشحات فإنها — فى رأينا — ظاهرة ارتبطت لدى الأندلسيين بالترف الفنى ، الذى بلغوا منه مبلغا كبيرا

ثامنا — كثرت هذه الألفاظ فى شعره كثرة يمكن أن تعد معها « لازمة » له(٢) :

---

(١) ديوان ابن زيدون — تحقيق كيلانى وخليفة ص ٢٢٩ . وتحقيق محمد سيد كيلانى ص ٢٠٠ .

(٢) انظر (ابن زيدون) لحسن جاد حسن . ص ٢١٣ وما بعدها .

— إيه بمعنى : زد .
— مَراد « : مطلب .
— عذيرى « : عاذرى ونصيرى .
— علاق « : نفيس .
— واها « : استطابة أو لهفة ! .

أغراض شعره :

(١) الغزل :

وهو القيثارة التى عرف عليها « ابن زيدون » ألحان حبه ، فأسمعنا نغمة الأمل ، وأنغام الحيرة والقلق ، وصيحات اليأس والحرمان ، وهدهدات الحنين والذكرى ، واللوعة والنجوى

جرى حبه « ولادة » فى هذا المجرى ، فـكان كما عبر فى أبياته وهو يخاطبها(١) :

أرخصتِنى من بعد ما أغليتنى ، وحططتنى ، ولطالما أعليتنى
بادرتنى بالعزل عن خطط الرضا ، ولقد محضتُ النصح إذ وليتنى
هلا ، وقد أعلقتنى شرك الهوى ، عللتنى بالوصل أو سليتنى
الصبر شهد عندما جرعتنى ، والنار برد عندما أصليتنى
كنت المنى ، فأذقتنى غصص الأذى .
ياليتنى ما فُهت فيك بليتنى

على أن شعره فى أول حبه لم يأتنا منه شىء ذو بال ، كالأبيات التى ودع بها محبوبته (ودع الصبر محب ودعك . . .(٢)) ، والتى يشككنا

(١) ديوان ابن زيدون : تحقيق كيلانى وخليفة ص ٢٧٣ وتحقيق محمد سيد كيلانى ص ١٨٢ .
(٢) انظر ص١٩ من هذا الـكتاب .

« المقرى » فى نسبتها إليه . ولعله حينذاك اجتزأ باللقيا ، فأرضى ضمعه وطرفه ، وأمتع وجدانه ، ودغدغ عواطفه ، فلم يكن المجال للشعر ، وإنما كان لتساقى الهوى ، فهو لم يصمت عن وصف هذا الحب إلا لأنه كان فى متناوله ، كما قال فى « نونيته » .

إذ جانب العين طلق من تألفنا ومربع اللهو صاف من تصافينا
وإذ هصرنا فنون الوصل دانية قطافها ، فجنينا منه ما شينا

ولهذا يدعو سارى البرق — أى السحاب — أن يباكر قصر محبوبته ، وأن يجزيها عن خالص الهوى والود ، الذى طالما سقته إياه :

ياسارى البرق غاد القصر واسق به
من كان صرف الهوى والود يسقينا

ويذكر متعة العيون ، ونعمة الحياة ، وغضارة العيش ، التى رفل فيها :

ياروضة طالما أجنت لواحظنا وردا ، جلاه الصبا ، غضا ونسرينا
ويا حياة تملينا بزهرتها منى ضروبا ، ولذات أفانينا
ويا نعيما خطرنا من غضارته فى وشى نعمى ، سحبنا ذيلها حينا

ولكنه عندما حرم جعل يجتر شئونه ، وتراوده الوساوس والأوهام فى حبه ، ويحاول أن يثبت المحبوبة إخلاصه ، ويتقلب على جمر الهوى ، فيلتهب حشاه ، ويجهد أن يطفئه بالشعر ، ولكن هيهات ! !

(ب) المديح :

ارتبط شعر المديح بحياة « ابن زيدون » الاجتماعية ، فمدح ، طلبا للجاه والمنصب ، وليس التماسا للمال والغنى ، فقد كان فى ثروة تغنيه عن أن يمد اليد . وكثرت مدائحه فى بنى جهور وبنى عباد ، يعد فيها مآثر ممدوحيه ، ويتغنى بمحامدهم ، ويذكر فضلهم عليه وعلى العباد ، شأن كل مديح ، يسدد به الشعراء ضريبة البر بهم ، والحدب عليهم

على أن نبرة الإخلاص تشيع فى مديحه لكل من : « أبى الوليد ابن جهور » فى «قرطبة » ، و « المعتضد بالله » فى « إشبيلية » ؛ لأن الأول كان صديقه قبل أن يكون أميره ، وهو الذى انتشله من سجن أبيه ، ومكن له من الفرار منه ، ناجيا من عذاب مقيم ؛ فله عليه يد . و « المعتضد بالله » استقبله فى «إشبيلية» استقبالا حسنا ، وأنساه ما أهمه ، ووسع له فى مجلسه ، وأدناه من عرشه ، واستوزره ، وامتدت علاقته به إلى أكثر من عشرين عاما . وشاركه ابنه « المعتمد بالله » فى بعض من هذا ، ولم يبخسه منزلته بعد وفاة أبيه . ولم ينصت إلى حسدة « ابن زيدون » عندما سعوا بالوشاية فيه ، بل ردهم على أعقابهم مدحورين ، وأفرط فى لومهم . فإذا مدح « ابن زيدون » أيا من هؤلاء الثلاثة ، فإنما يستحضر عند مدحه الاعتراف بالجميل ، وشكر المنة والعطية ، والثناء على المنعم المتفضل .

(ح) الرثاء :

وشعر الرثاء هو الوجه الآخر لحياة « ابن زيدون » الاجتماعية ، فقد دعته الظروف أن يجامل أمراءه ، ويواسى أعيان عصره ، فيما ينوب أهليهم من القضاء المحتوم .

وفى مقابل العاطفة التى تطالعنا فى بعض شعر المديح ، نجد الوجدان الضحل والانفعال الوقتى لنغمة الحزن فى شعر الرثاء ، ومرد ذلك إلى أمرين :

١ — داعى السرعة التى يقتضيها واجب المجاملة والمواساة ، وحرص الشاعر على ألا يكون أقل من غيره اهتماما بأداء هذا الواجب .

٢ — طبيعة الناس فى هذه البلاد أنهم كانوا يتقبلون الموت وأخباره بهدوء ، وقد شهدنا بأعيننا حفدتهم فى « المغرب الأقصى » يصنعون هذا الصنيع ، يلبسون البياض عند الموت ، ويستقبلون نبأه فى هدوء وسكون ، ولا يلبثون إثر تشييع الجنازة أن ينصرفوا إلى أعمالهم ، وكأن شيئا لم يحدث

وفى رثاء « ابن زيدون » تطالعنا(١) تلك النفس التى انتهت من صراع الأيام ، وقراع الخطوب ، وبلت حلو الزمان ومره ، وذاقت شهده وصابه ، فريضت على المكاره ومرنت على الخطوب ويئست من السخط ، وملت من الثورة . فهو يذكر الدنيا وأحداثها ، وسنة الزمان ودأبه ، مستمدا من نفسه ومن حياته معانى ما يقول ، وكأنه فى هذا الموقف المؤثر يستعرض أحداثه ويتمثل خطوبه ، ثم يذكر أن الموت غاية كل حى ، ويحذر من الاغترار بمتاع الدنيا وزخرفها ، ويدعو إلى الصبر : صبر الحسبة، لا صبر اليأس . ويردد هذه المعانى فى كل قصيدة رثاء .

(د) الاستعطاف :

عرفنا ما صاربه « ابن زيدون » إلى السجن ، وكان له أن يثور ويهيج، ولكن ما قيمة ثورته وهياجه أمام حاكم متسلط قدير على إذلاله ! ؟ . وألا يمكنه بقدر من الرياء الاجتماعى أن يستل سخيمة هذا الحاكم ، ويستدفع غضبه ! ؟ . ولقد كان هذا : لجأ إلى ما نسميه أسلوب الاستعطاف ؛ عسى أن يبلغ به ما لا ينيله إياه منطق الدفاع الحر عن الحق المهيض ، ومن هنا حشد قوته البيانية فى سبيل هدفه .

وقد مزج الاستعطاف بالمديح ، وبثه من خلاله ، وقلما انفرد الاستعطاف فى قصائد خاصة (٢) ، إلا قصيدته الخالدة :

ما على ظنى باس يجرح الدهر وياسو

التى أرسلها إلى صديقه « أبى حفص بن برد » ؛ ولهذا جاءت درة فى نسجها ، ونغمتها الصافية ، الهادئة ، المتألمة .

---

(١) حسن جاد حسن : ابن زيدون ص ١٦٥ .
(٢) وانظر (فى الأدب الأندلسى) لجودت الركابى — ص ١٩٧ .

(هـ) الحنين والشكوى :

أرغم « ابن زيدون » على فراق وطنه وألافه ، فعاودته بعد الفراق ذكراها ، وحن إلى مرابع صباه ، ومراتع أنسه ، ومجالى بهجته ، فأطلق عقيرته ، ينفس عما يكربه من البين ، ويمنى نفسه بالتلاقى .

وله قصائد خالصة للحنين والشكوى ، مقصورة عليهما ، أو على أحدهما ، مثل أرجوزته :

« يا دمع صب ما شئت أن تصوبا »

ومثل موشحته :

« سقى الله أطلال الأحبة بالحمى »

وله قصائد أخرى ، يبث الحنين أو الشكوى فى تضاعيفها ، مثل قصيدته « القافية » التى مطلعها :

إنى ذكرتك بالزهراء مشتاقا ... والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا

ويذكر صاحب « قلائد العقيان »(١) فى سبب إنشادها : « وكان [ابن زيدون] يكلف بولادة بنت المهدى هذه ويهيم ، ويستضىء بنور تخيلها فى الليل البهيم ، وكانت من الأدب والظرف ، وتتميم المسمع والطرف ، بحيث تختلس القلوب والألباب ، وتعيد الشيب إلى أخلاق الشباب ، فلما حل بذلك الغرب ، وانحل عقد صبره بيد الكرب ، كر إلى « الزهراء » ليتوارى فى نواحيها ، ويتسلى برؤية ما فيها ، فوافاها ، والربيع قد خلع عليها برده ، ونثر سوسنه ووردة ، وأترع جداولها ، وأنطق بلابلها ، فارتاح ارتياح « جميل » بوادى القرى ، وراح بين روض يانع وريح طيبة السرى ، فتشوق إلى لقاء « ولادة » ، وحن ، وخاض تلك النوائب والمحن ، فكتب إليها يصف فرط قلقه ، وضيق أمده إليها وطلقه ، ويعاتبها على إغفال تعهده ، ويصف حسن محضره بها ومشهده » .

(١) ٧٥ طبعة ١٣٢٠ هـ .

(و) الدعابة:

مال الأندلسيون إلى الدعابة؛ بداعي الترف الاجتماعي، والفني.

ودعابة «ابن زيدون» تقتصر على نوع واحد، سمي «المطيرات»، وهي عبارة عن ألغاز وأحاجي، يتطارحها الأصدقاء، ويقصد بها[1] ترويض الذهن، واختبار البديهة، ومطيرات «ابن زيدون» متبادلة بينه وبين «المعتمد بالله»، ما عدا واحدة، دارت بينه وبين صديقه «أبي طالب محمد بن مكي». ومطيراته مع «المعتمد بالله» حافلة بأسماء الطيور، ولعل السر في ذلك كلف «المعتمد بالله» بالطيور، وولعه بأسمائها، وصفاتها، وأحوالها.

بحتري المغرب:

قال «ابن بسام»[2] يقول بعض أدبائنا: إن «ابن زيدون» بحتري زماننا. وصدقوا؛ لأنه حذا حذو «الوليد» في بعض قصائده. وقال «ابن نباتة»[3]: «وكان [ابن زيدون] يسمى بحتري المغرب؛ لحسن ديباجة لفظه، ووضوح معانيه».

ويعلق الدكتور «حسن جاد حسن»[4] على هذا، فيرى أن حسن ديباجة اللفظ، ووضوح المعنى ليسا كافيين لقبول هذه الدعوى؛ فإن «البحتري»، و«ابن زيدون»:

أولا — يتفقان في الصنعة الشعرية، وفي رعاية متطلبات النظم.

ثانيا — يستمد كلاهما معانيه من وحي الخيال، وجمال الطبيعة، لا من قضايا العلم، والمنطق، والمذاهب الفلسفية

---

(١) انظر (ابن زيدون) لعلي عبد العظيم ص ٤٠٣ وما بعدها.
(٢) الذخيرة ١ / ٣٢٦.
(٣) سرح العيون — ص٤
(٤) انظر كتابه (ابن زيدون) — ص ٢٢٥ وما بعدها.

ثالثا — كثر الغزل فى شعرهما كثرة طغت على الأغراض الأخرى، وكانت معانى الحب واضحة فى ذهنيهما .

رابعا — تأثر « ابن زيدون » ببعض معانى « البحترى » ، وصوره .

وفى رأينا أن أهل الأندلس كانوا ينظرون إلى المشرق، كما ينظر الطفل إلى ظئره ويتطلعون إليه فى صلواتهم صباح مساء ، ويدينون لخليفته بالولاء الروحى، ويمتحون من المعين اللغوى الذى ارتضاه المشارقة وقد سبق المشارقة بأمثال « البحترى » ، و « أبى تمام » و « المتنبى » و « أبى العلاء » وملأ شعرهم الدنيا ، حتى قيل إنهم لم يدعوا اللاحق أن يلحقهم ، ولا لتال أن يسبقهم . وينظر بعض الأدباء فيرى اتفاقا فى النهج — أتى عن طريق المصادفة — بين « ابن هانىء الأندلسى » و « المتنبى » مثلا ، إذ اتسعت نفساهما للوجود ، ومظاهره ، ولما يضطرب به الناس فى الحياة(١) ، فدعاه إلى تسمية « ابن هانىء » متنبىء المغرب . وكذلك رأى « ابن زيدون » و « البحترى » يجرى شعرهما مستويا ، عذبا ، رائقاً ، صافيا ، مطبوعا ، خاليا من التصنع والتعمل والرداءة ، فألحق « ابن زيدون » بـ « البحترى » .

وهنا سؤال يطرح نفسه :

هل فنيت شخصية « ابن زيدون » تماما فى شخصية « البحترى » ؟

الجواب : لا .

فكلتاهما شخصية مستقلة ، متميزة ، واضحة المعالم الأدبية . وقد ساعد على ذلك :

● تميز « ابن زيدون » بعاطفة حارة متقدة ، وارتباطه بالطبيعة الأندلسية ، التى لا تجاريها طبيعة بلاد الشام التى وصفها « البحترى » . ثم ممارسة « ابن زيدون » النثر .

---

(٢) انظر فى كتابنا (قضايا النقد الأدبى الحديث) فصل (التجربة الشعرية) — ص ٨٢ .

* تفوق « البحترى » في الوصف وقوة التصوير ، بما لا يدع مجالا لشاعر غيره — أيا كان — أن يباريه فى ذلك .

أهم الدراسات السابقة :

١ — محاضرة ألقاها أحمد زكى (باشا) ، فى نادى الموظفين بالاسكندرية ، وطبعت سنة ١٩١٤ م تحت عنوان (ابن زيدون) .

٢ — فصل عن « ابن زيدون » فى كتاب (بلاغة العرب فى الأندلس) — للدكتور أحمد ضيف — مطبعة مصر ١٩٢٤ م .

٣ — نظرات فى أدب « ابن زيدون » ، كتبها « كامل كيلانى » فى كتابه (نظرات فى تاريخ الادب الأندلسى) — القاهرة ١٣٤٢ هـ/ ٩٢٤ م .

٤ — ثلاث مقالات ، كتبها « أحمد السكندرى » فى (مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق — المجلد الحادى عشر — سنة ١٩٣١ م

٥ — مجموعة أبحاث للقدامى والمحدثين ، عن حياة « ابن زيدون » وشعره ، ألحقها « كامل كيلانى » بديوان ابن زيدون ، الذى حققه مع « عبد الرحمن خليفة » ، ونشراه سنة ١٩٣٢ م .

٦ — رسالة جامعية للدكتور « حسن جاد حسن » ، سنة ١٩٤٦ م ، ونشرها فى كتابه (ابن زيدون — عصره / حياته / أدبه) — المطبعة المنيرية بالأزهر — ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م .

٧ — قصة الأدب فى الأندلس ، وهى موسوعة ألفها الدكتور « محمد عبد المنعم خفاجة » ، ونشرها سنة ١٩٥٢ م — المطبعة المنيرية بالأزهر ، ثم أصدرتها مكتبة المعارف فى بيروت سنة ١٩٦٢ م فى جزءين كبيرين ، وتناول المؤلف فيها تاريخ العرب فى الأندلس وقصة الحضارة العربية فيها ، مع تراجم عدة .

٨ — كتاب (ابن زيدون) — فى سلسلة نوابغ الفكر العربى —

الدكتور « شوقى ضيف » ، أصدرته دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٣ م وسنة ١٩٥٩ م .

٩ — رسالة جامعية لـ « على عبد العظيم » ، ونشرها فى كتابه (ابن زيدون ـ عصره وحياته وأدبه) ـ الأنجلو المصرية ١٩٥٥ م . وفيها ملاحظات قيمة على تحقيق ديوان الشاعر ، ومحاولة لتحليل العلاقة بين « ابن زيدون » ومن اتصل بهم .

١٠ — كتاب (فى الأدب الأندلسى) للدكتور « جودت الركابى » ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٠ م ، وفيه دراسة للحياة السياسية والاجتماعية والفكرية والثقافية فى بلاد الأندلس بوجه عام ، وفيه فصل عن « ابن زيدون » يتناول حياته ، وأغراض شعره ، وأصالته الأدبية .

شعـــر ابن زيدون

(نصوص مختارة)

النص الأول(*)

فى الغزل

ذكريات :

١ ـ أضحى التنائى بديلاً من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا
٢ ـ ألاَّ ـ وقد حانَ صُبحُ البَيْنِ ـ صَبَّحَنا ... حَيْنٌ ، فقامَ بنا للحَيْنِ نَاعِينا

---

١ ـ التنائى : البعد ، وضده التدانى : القرب . التجافى : المقاطعة . ورواية الديوان (وإذا أطلقناه قصدنا النسخة رقم ٤٩٦ ـ أدب ـ دار الكتب) : « وبان عن طيب اقيانا » ، ورواية قلائد العقيان : « وآن عن طيب لقيانا » .

والمعنى : أنه قد أبدل من القرب بعدا ، ومن الوصل جفوة ومقاطعة .

٢ ــ ألا : لغة فى « هلا » ، وهى كلمة تحضيض وتتضمن الحث على الفعل إن دخلت على المضارع ، واللوم على ترك الفعل إن دخلت على الماضى . حان صبح البين : جاء وقته ، والبين : الفراق . الحين : (بالفتح) : الموت والهلاك . الناعى : من يعلن خبر الوفاة .

والمعنى : هلا صبحنا الهلاك فى صبيحة يوم الفراق .

(*) ديوان ابن زيدون بتحقيق كيلانى وخليفة ص ٤ وتعليق محمد سيد كيلانى ص ١٦٥ .

٣ ـ مَنْ مُبْلِغُ المُلْبِسِينا بانتزاحِهِمُ حُزْناً مع الدهرِ لا يَبْلَى ويُبْلِينا

٤ ـ أنَّ الزَّمانَ — الذى ما زال يُضحكنا

أُنساً بقربهِمُ ـ قد عادَ يُبْكينا

٥ ـ غِيظَ العِدا من تَساقِينا الهوى ، فدعَوا

بأن نَغَصَّ ، فقالَ الدهرُ : آمينا

٦ ـ فانْحلَّ ما كانَ معقوداً بأنفسنا، وانبتَّ ما كانَ مَوْصُولاً بأيدينا

٧ ـ وقدْ نكونُ وما يُخْشَى تفرُّقُنا، فاليومَ نحن وما يُرْجَى تَلاقينا

٣و٤ — الملبسين : جمع ملبس ، اسم فاعل من (ألبس) ، و « حزنا » مفعوله . انتزاحهم : افتراقهم . يبلى : ثلاثيا بمعنى ينفد ، ورباعيا بمعنى يهلك .

أن الزمان ... الخ : مصدر مؤول فى موقع المفعول به لـ « مبلغ » فى البيت السابق .

ومعنى البيتين : من الذى يبلغ الذين ألبسونا حزنا ـ بسبب انتزاحهم ـ أن الزمان يبكينا الآن من بعد ما ظل يضحكنا أيام الأنس بهم .

٥ — نغص : يقال : غص فلان بالماء أى شرق به لأنه يقف فى حلقه .

والمعنى : أن الأعداء قد أصابهم الغيظ مما كنا فيه من هناءة ووصال ، فحسدونا ، ووقع لنا فى الدهر ما أثلج صدورهم .

٦ و ٧ — انبت : انقطع وزنا ومعنى .

ومعنى البيتين : أننا صرنا إلى حال انفكاك ، لا يرجى معها التلاقى ، بعد أن كنا مجتمعين لا نخشى التفرق .

٨ ـ ياليتَ شِعْرِى ـ ولمْ نُعْتِبْ أعادِيَكُمْ ـ
هل نالَ حَظًّا من العُتْبَى أعادينا

٩ ـ لم نعتقدْ بعدَكُمْ إلاَّ الوفاءَ لكُمْ رأيًا ، ولم نتقلدْ غيرَهُ دِينا

١٠ ـ ماحقُّنا أنْ تُقِرُّوا عَيْنَ ذى حَسَدٍ بنا ، ولا أنْ تَسُرُّوا كاشحًا فينا

١١ ـ كُنَّا نَرى اليأسَ تُسْلينا عوارضُهُ وقد يئسنا ، فما لليأسِ يُغْرِينا

---

٨ — ليت شعرى : أى ليتنى أعرف . نعتب : مضارع أعتب : أعطاه العتبى ، أى أرضاه ، والعتبى هى الرضا .

والمعنى : أنه يخشى أن ينال الأعداء من محبوبته ما حرص هو على ألا ينيلهم إياه ، أى أنه يخشى انصرافها عن حبه ، وتلك هى الطامة الكبرى التى تنزل بالمحبين .

٩ — يقول : إنه مقيم على الوفاء ، فالوفاء له عقيدة ودين ، لا يدين بغيره فى الحب .

١٠ — كاشحا : عدوا ، وكل من يضمر العداوة كاشح ، كأنه يطوى كشحه عليها .

يدفع عن نفسه ما يقتضى السلو عنه ونسيانه ؛ لأنه لا يريد أن تقر عين حاسد به ، ولا أن تسر عدوا فيه .

١١ — المعنى : كنا نظن اليأس يسلى ، فجربناه ، ولكن يأسنا منكم يزيدنا ولوعا بكم .

١٢ـ بِنْتُمْ وبِنَّا ، فما ابتلَّتْ جوانحُنَا ـ شَوْقاً إليكم ـ ولا جَفَّتْ مَآقينا

١٣ـ نكادُ حينَ تُناجيكم ضمائرُنا ـ يقضي علينا الأسى لولا تأسِّينا

١٤ـ حالتْ لفقدِكمُ أيامُنا ، فغدتْ سُوداً ، وكانتْ بِكُمْ بيضاً ليالينا

١٥ـ إذْ جانبُ العيشِ طَلْقٌ من تألُّفِنا ومَرْبعُ اللهوِ صافٍ من تصافينا

١٦ـ وإذ هَصَرْنا فنونَ الوصلِ دانيةً قِطَافُها ، فَجَنَيْنَا منه ما شِينا

---

١٢ — بنتم وبنا : بعدتم وبعدنا ، والفعل (بان) بمعنى بعد . الجوانح : الأضلاع . واحدتها جانحة وهى الضلع ، والمراد بالجوانح ما تنطوى عليه وهو القلب . المآقى : جمع مأق وهو مجرى الدمع من العين أو مقدم العين أو مؤخرها ، وتطلق المآقى على العيون أيضاً .

والمعنى : وقع البعاد ، فما هدأ القلب من انفطاره ؛ شوقا إليكم ، ولا جفت العيون من البكاء عليكم .

١٣ — الأسى : الحزن . التأسى : التصبر والتعزى .

المعنى : أن الحزن يكاد يقضى عليه ، لولا أنه يتأسى ويتصبر ، معللا النفس .

١٤ و ١٥ و ١٦ — حالت : استحالت أى تحولت من حال إلى حال . مربع اللهو : ملعبه ، ورواية الذخيرة والقلائد : «ومورد اللهو» . فنون الوصل : ضروبه وأنواعه ، أو الفنون جمع فنن وهو الغصن وما تشعب منه . وفى (لسان العرب) : «قال أبو الهيثم : الفنون تكون فى الأغصان ، والأغصان تكون فى الشعب ، والشعب تكون فى السوق» . فالشاعر يستعير للوصل أفنانا يهصرها . هصرنا : أملنا أو ثنينا وعطفنا . شينا : شئنا بتسهيل الهمزة . ورواية الذخيرة والقلائد : «قطوفها» . والقطوف : الثمار التى يحين قطافها وتجنى .

=

دعاء وعيد :

١٧ـ ليَدُمْ عهدُكُمُ عهدُ السُّرُورِ ، فما
كُنْتُمْ لأَرْواحِنـــا إلاّ رياحينــــا

١٨ـ لا تَحْسَبُوا نَأْيَكُمْ عنَّا يُغَيِّرنا ، إنْ طالَمَا غَيَّرَ النـــأيُ المحبينا

١٩ـ واللهِ لا اطّرفت أهواؤنا بَدَلاً عنكم ، ولا انصرفتْ عنكمْ أمانينا

= ومعنى الأبيات الثلاثة : كانت ليالينا بيضا ؛ لما فيها من أنس وألفة ووصال ومسرات ومباهج ، وتحولت الآن إلى أيام سود ، إذ ما نرى فى شمسها وضحاها إلا مرائى نفوسنا الكالحة ؛ بسبب الهجر والبعاد .

١٧ — عهد السرور : بدل من (عهدكم) أو بيان له . ورواية الذخيرة : « فما كنتم لأيامنا » .

يدعو لهذا العهد عهد السرور بالدوام رطبا عبقا بالحياة

١٨ — ان طالما . . . : تقرأ (ان) مفتوحة فهى مصدرية ، ومكسورة فهى شرطية . يبدد وهما قد يخطر بتغيره ؛ بسبب النأى .

١٩ — اطرفت : (مشددة) أى استحدثت ؛ يقسم أنه ما استحدث هوى طريفا جديدا بدلا عن هوى أحبائه . ورواية التيمورية : « والله لاطرفت . . . » ، وطرفت بمعنى نظرت . ورواية الذخيرة والقلائد : « والله ما طلبت أهواؤنا بدلا منكم . » والأمانى : جمع أمنية . كتابتهما بتشديد الياء ، وتخفيفها للنظم .

يقسم على بقائه على حبها ، واحتشاد أمانيه فيها ، وعدم تفكيره فى استحداث هوى غير هواها .

٢٠ـ ياساريَ البرقِ ؛ غادِ القَصْرَ ، واسقِ بهِ
مَنْ كان صِرْفَ الهوى والوُدِّ يَسْقينا

٢١ـ واسأَلْ هنالك : هل عَنَّى تَذَكُّرُنا
إلفـــاً ، تَذَكُّرُهُ أمسى يُعَنِّينـــا

٢٢ـ ويانسيمَ الصبَا ؛ بَلِّغْ تحيَّتَنا مَنْ لوْ على القُرب حيًّا كان يُحيينا

٢٣ـ فهلْ أرى الدهرَ يَقْضِينا ؛ مُساعَفَةً
منـــه ، وإنْ لم يكنْ غِبًّا تَقاضِينا

---

٢٠ — سارى البرق : المراد منه السحاب يسرى ليلا . غاد القصر : باكره فى أول النهار . صرف الهوى : خالصه.

يدعو السحاب أن يباكر قصرها ، ويسقيها كفاء ما سقت محبها من الود والهوى الخالص .

٢١ — عنى يعنى (مزيد بالتضعيف متعد) : شغله وأتعبه .

يريد أن يتعرف : هل شغلت محبوبته بتذكره مثلما يشغل هو بها .

٢٢ — يرسل تحيته إليها مع نسيم الصبا ، ويذكر ما كان هو فيه من حياة مع القرب منها .

٢٣ — غبا : الغب فى الزيارة الإقلال منها .

المعنى : إننا تقاضينا الوصال فى إلحاح ، ولم نتقاضه غبا . فهل ترى يسعفنا الدهر بما نطلبه .

المحبوبة الجميلة :

٢٤- ربيبُ مُلْكٍ ، كأنَّ الله أنشأهُ مِسْكاً ، وقدَّرَ إنشاءَ الوَرَى طينا

٢٥- أو صاغَهُ وَرِقاً مَحْضاً ، وتَوَّجَهُ مِنْ ناصعِ التِّبْرِ إبداعاً وتَحْسينا

٢٦- إذا تأوَّدَ آدَتْهُ رفاهيـــةً تُومُ العقود ، وأدْمَتْهُ البُرَى لِينا

٢٧- كانت له الشمسُ ظِئْراً في أكِلَّتِهِ ،

بَلْ مَا تَجَلَّى لَهـــاَ إلا أحايينـــا

---

٢٤ — محبوبته من بنات الملوك ، عاشت في النعمة والرفاهية ، إذا وزنت ببنات جنسها فاقتهن ، فهي مخلوقة من المسك ، وغيرها من الطين

٢٥ — ورقا محضا : فضة خالصة . ناصع التبر : التبر الناصع أي الذهب اللامع يشبه به شعرها الأشقر .

يقول : بشرة المحبوبة بيضاء صافية في لون الفضة ، وشعرها أشقر ، معقوص على رأسها ، كتاج من التبر الناصع .

٢٦ - تأود : تثنى . آدته توم العقود : أثقلته ، والتوم جمع تومة وهي الحبة من الفضة . أدمته البرى : أسالت دمه ، والبرى : الخلاخيل ، واحدتها برة ، وهي حلقة الخلخال .

يقول : إن محبوبته مرفهة ناعمة ، لا تقوى على حمل حليها .

٢٧ — ظئرا : مرضعا على التشبيه ، والظئر : المرضع والعاطفة على ولد غيرها من الناس وغيرهم . أكلة : أستار رقاق جمع كلة ، ويسميها المصريون (الناموسية) لأنها تصد الناموس وتقي من شره .

يقول : إن محبوبته منعمة مخدومة ، تطلع الشمس وهي ما تزال نائمة ، بل ربما مضى اليوم لا تتراءى لها الشمس ؛ لأن لديها من يكفيها شئونها .

٢٨- كأنما أُثبِتَتْ فى صَحْنِ وَجنتِهِ زُهْرُ الكواكبِ تعويذاً وتزْيينا
٢٩- ماضرَّ أن لم نكن أكفاءه شرفاً وفى المودَّةِ كافٍ مِنْ تكافينا
٣٠- ياروضةً طالما أجنَتْ لواحظَنا
وَرْداً - جلاهُ الصِّبا - غضَّاً ، ونَسْرينا
٣١- ويا حياةً تَمَلَّيْنا بِزَهْرَتِها مُنًى ضروباً ، ولذاتٍ أفانينا
٣٢- ويا نعيماً خَطَرْنا من غضارته فى وَشْىِ نُعْمَى ، سَحَبْنا ذيلَه حينا

---

٢٨ تعويذا : رقية .

المعنى : أن جمال وجهها وضاح وضوح الكواكب الزهر ، فهو جمال يبهر ناظره ويروعه ، كأنه اتخذ فى هذا المكان للزينة والرقية .

٢٩ – يعترف بأنه لا يكافىء محبوبته شرفا ومجدا ، وذلك مما يرضى النساء ، ثم يحيل على المودة التى يحملها ، فهى كافية لأن يكون جديرا بحبها .

٣٠ و ٣١ و ٣٢ – أجنت لواحظنا وردا : جعلت عيوننا تجنى وردا . جلا الصبا : صقله وحسنه . غضا طريا : النسرين : نوع من الورد أبيض ذو رائحة عطرة : تملينا : تمتعنا ونعمنا . غضارته : نعمته وخفضه . وشى نعمى : أى نعمة موشية أو ذات وشى ، والوشى الزينة ، وثوب من الحرير منقوش . ورواية القلائد :

« ويا نعيما حضرنا من غضارته ... سحبنا ذيلها حينا » .

يذكر النعيم العظيم الذى كان ينعم به فى حضرتها ، فيخلع منها على أمثال الزهور ، ويتملى باللذات والمنى ، ويخطر من أجل ذلك فى نعمة وخفض من العيش يزدهى به ويختال .

٣٣ـ لسنا نُسَمِّيكِ ، إجلالاً وتَكْرِمةً ،
وقَدْرُكِ المُعْتَلِي عن ذاك يُغْنِينا

٣٤ـ إذا انفردْتِ وما شُورِكْتِ في صفةٍ ،
فَحَسْبُنا الوصفُ إيضاحاً وتَبْيِينا

نجوى :

٣٥ـ يا جنَّةَ الخُلْدِ ، أُبْدِلْنا بِسِدْرَتِها والكَوْثَرِ العذبِ ، زَقُّوماً وغِسْلِينا

٣٦ـ كأننا لم نَبِتْ، والوصلُ ثالثُنا، والسعدُ قد غَضَّ مِنْ أجفانِ واشِينا

---

٣٣ و ٣٤ — يقول : إنه لا يسميها ، إجلالا لقدرها ، فما يظن أحد أنه يصف سواها ، لأنها متفردة بمزاياها ، لا تشركها فيها واحدة من بنات جنسها .

٣٥ — سدرتها : يشير إلى « سدرة المنتهى » ، التي قالوا : إنها شجرة في الجنة عظيمة الظل . الكوثر : نهر في الجنة أعطيه نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال تعالى : « إنا أعطيناك الكوثر » . الزقوم والغسلين : من أطعمة أهل النار . قيل : شجرتان في جهنم ، وقيل : الغسلين ماء حار يسيل من جلود أهل النار ولا يجدون ما يطفئون به عطشهم غيره ! ! . ورواية « الذخيرة والقلائد : « أبدلنا بسلسلها » . والسلسل : الماء العذب أو البارد .

يوازن الشاعر بين ما كان فيه وما هو فيه الآن . كان في جنة ونعيم مقيم ، فصار في نار وعذاب متجدد .

٣٦ — غض : أنام ، وفي إسناده إلى السعد استعارة .

يتذكر الشاعر ليالي التقى فيها بمحبوبته ، ولم يشاركهما إلا الوصال ، لو صح أن يكون الوصال شريكا . والسعد ـ من فرحته بهما ـ حجب عنهما أعين الرقباء .

٣٧ ـ إن كان قد عزّ فى الدنيا اللقاء ففى   مواقف الحشر نلقاكم . ويكفينا

٣٨ ـ سِرّان فى خاطرِ الظلماء يكتمنا   حتى يكاد لسانُ الصبح يُفشينا

٣٩ ـ لاغروَ فى أنْ ذكَرْنا الحزنَ ، حين نَهتْ
عنــــهُ النُّهى ، وتركْنا الصَّبْرَ ناسينـــا

٤٠ ـ إنّا قرأْنا الأسى يومَ النَّوى سُـــوَراً
مكتوبةً ، وأخذْنا الصـــبرَ تلقينا

٤١ ـ أمَّا هواكِ فلم نَعْدِلْ بمنهله   شِرْباً ، وإن كان يُروينا فَيُظمينا

---

٢٧ — هذا البيت مزيد فى رواية قلائد العقيان .

ومعناه : انه يرضى من محبوبته أن تحرمه وصالها حتى يوم الحشر ، فهو واثق أنه ملاقيها هناك .

٢٨ — هذا البيت متصل فى معناه بالبيت (كأننا لم نبت . .) .

يقول : تحول شخصانا إلى سرين ، يحويهما الظلام طول الليل فى خاطره ، كتمانا لأمرنا .

٣٩ و ٤٠ — النهى : مفردها العقل ، وقد يكون جمع (نهية) بمعنى العقل أيضا .

يقول فى البيتين : إن العقل يدعو إلى الصبر ، ونسيان الحزن ، ولكن صدمة الفراق كانت أعمق أثرا من أن نلبى داعية العقل ، فأصبح الصبر شيئاً خارجا عن نفوسنا ، نلقنه ، وندعى إليه .

٤١ — المعنى : إنه يعيش على حبها فقيه ريه ، وإن كان كلما شرب منه تجددت رغبته فيه .

٤٢ـ لم نَجْفُ أُفقَ جمالٍ ـ أنتِ كوكبُهُ ـ
سالِينَ عنه ، ولم نَهْجُرْه قالِينـــا

٤٣ـ ولا اختياراً تَجنَّبْناه من كَثَبٍ . لكنْ عَدَتْنا على كُرْهٍ عَوادِينا

٤٤ ـ نأسَى عليكِ ؛ إذا حُثَّتْ مشعشعةً فينا الشَّمُولُ ، وَغَنَّانا مُغَنِّينا

٤٥ ـ لا أكؤسُ الراحِ تُبدِي من شمائلنا
سِيما ارتياحٍ ، ولا الأوتارُ تُلهِينـــا

الجواب المطلوب :

٤٦ـ دُومِي على العهدِ ـ ما دُمْنا ـ محافظةً ؛
فالحرُّ مَنْ دَانَ إنصـــافاً كما دِينا

---

٤٢ و ٤٣ سالين : جمع سال ، اسم فاعل من (سلا) بمعنى نسى وصبر . قالين : جمع قال ، اسم فاعل من (قلا) بمعنى كره وأبغض . عن كثب : عن قرب . عدتنا : صرفتنا . العوادى : صروف الزمان جمع عادية .

يقول فى البيتين : إنه لم يفارقها بإرادته ، ولم يجفها سلوا ونسيانا ، وما هجرها كرها وقلى ، ولكنها العوادى أرغمته على فراقها .

٤٤ و ٤٥ — الشمول المشعشعة : الخمر الممزوجة بالماء . ورواية الذخيرة : « وقد حثت » .

يعان فى البيتين أنها لم تفارق خياله ، ولم تستطع مجالس الشرب والغناء أن تصرف طيفها ، أو تبدد صورتها من خاطره .

٤٦ — دان : جزى .

يقول : دومى على العهد محافظة ، ما دمنا محافظين عليه ؛ فالحر المنصف من يجزى كما جوزى . ورواية الذخيرة : « دومى على الوصل » .

٤٧ـ فما استعَضْنا خليلاً منكِ يَحْبِسُنا ،
ولا اسْتَفَدْنا حَبيبـــاً عنكِ يَثْنينـــا

٤٨ـ ولو صَبَا نحونا من عُلْوِ مَطْلَعِهِ بدرُ الدجى لم يكنْ ـ حاشاكِ ـ يُصبينا

٤٩ـ أوْلِي وفاءً . وإنْ لم تَبْذُلِي صلةً فالطيفُ يُقْنِعنا ، والذِّكْرُ يَكفينا

٥٠ـ وفى الجوابِ مَتــاعٌ ، إن شَفَعْتِ به
بيضَ الأيادى ، التى ازلتِ تُولينـــا

---

٤٧ و ٤٨ — فى البيت الأول روايات : فى القلائد : « فما ابتغينا خليلا . . » . وفى الذخيرة :

فما استعدنا خليلا منك يصرفنا ولا استفدنا حبيبا عنك يسلينا

وفى المعجب :

ولا استفدنا خليلا عنك يشغلنا ولا اتخذنا بديلا منك يسلينا

البيت الثانى :

صبا : مال . يصبينا : يستهوينا كأنه يجعلنا نعمل عمل الصبيان . ورواية الذخيرة : « يسبينا » بمعنى يأسرنا .

يقول فى البيتين : إنه لم يمل عن حبها إلى غيرها ، وإنه قد استقام على محبتها ، فأى إنسانة سواها ـ مهما بلغ جمالها وتعاظم ـ لا تلفته عن محبوبته .

٤٩ و ٥٠ — أولى : أنعمى . ورواية الديوان : « ابكى » . وفى القلائد والمعجب روى البيت الثانى : « وفى الجواب قناع ... » ، ولا معنى له إلا أن يكون القناع من القناعة كالإقام من الإقامة ، ولكن ذلك غير مألوف .

فى البيتين : يطلب إليها أن تنعم عليه بالوفاء والوصال ، فإن لم تقدر على جمل الوصال واقعا ، فلتجد عليه بطيفها ، ولتذكره . وطمع فى أن تجيبه ؛ ففى جوابها منة عليه ويد بيضاء يذكرها .

٥١ - عليكِ منى سلامُ اللهِ ما بَقِيَتْ صَـــبابةٌ بكِ نُخفيها فتُخفينا

---

٥١ - صبابة : قليل ، والصبابة القليل من المال . نخفيها فتخفينا : نسترها فتظهرنا - يقال : خفيت الشيء وأخفيته سترته وأظهرته - ضد - وقيل : نخفيها (بالضم) نسترها من أخفى ، وتخفينا (بالفتح) تظهرنا من خفى بمعنى أظهر واستخرج ، فالهمزة فى الأول للازالة ؛ فأخفاه أى أزال خفاه .

يختم القصيدة بتحية السلام ما بقى قليل من الحب ، فإنه يفضح مكنون أمره ويعان عن مكتتم سره .

تحليل ونقد

الجمال الفكرى :

١ افتتح الشاعر قصيدته بالحديث عن التنائى ، الذى أضحى بديلا من قربه ، وعن التجافى الذى ناب عما كان يلقاه من طيب اللقيا ، فأشار بهذا - من أول الأمر - إلى عذاب نفسه ، ذلك العذاب الذى دعاه أن يستحث الموت والهلاك يوم البين ، حتى لا يحس أنه كان مختارا فى فراق محبوبته ، بل إن الموت كان أروح له ، وتعاوده الحياة ، فيطلب من يبلغ أحبته الذين ألبسوه الحزن - بسبب هذا الفراق - أن الزمان يقهره ، ويضطره إلى البكاء ، فهو يقابل بين مسراته السوالف وآلامه الحاضرة ، وكأن الزمان استجاب للأعداء الذين حسدوا ما كان يلقاه من هناءة ووصال ، فأثلج الزمان صدور الأعداء ؛ لأنه ومحبوبته قد صارا إلى حال من الانحلال والانفكاك لا يرجى معها اللقاء ، بعد أن كانا فى حال من الاجتماع لم يخافا معها التفرق . ويخشى الشاعر المحب أن تنصرف محبوبته

عنه وعن جبه ، فتنايل هؤلاء الأعداء ما حرص هو جاهدا على ألا ينيلهم إياه ، ويحبل على الوفاء الذى دان به فى شرعة الحب ، ويطمع فى أن تدين به محبوبته ، فلا تسلوه ، حتى لاتقر بالسلوى أعينهم . ويقول فى مرارة: إنه كان يظن اليأس من حبها يحمله على النسيان ، فجربه . ولكن تجربته حملته على الولوع بها ، ووقع البعاد - مظنة اليأس - فما فارقت نار الشوق جوانحه ، وما توقفت الدموع فى عينيه ، وكاد يسلم نفسه إلى الهلاك ، لولا أثارة من التأسى ، يعلل فيها نفسه باللقاء القريب ، ذاك اللقاء الذى كان له منه فى الماضى أشباه ونظائر ، رفهت لياليه ، وبيضتها ، ومنحته الأنس والألفة بمن يحب ، والوصال دانية قطوفه . واليوم تحولت إلى حرمان ، وتبدل الزمان ، فأمسى أسود قاتما ، يجثم على صدره .

٢ — كان عهد الهوى عهد مسرات ، فالشاعر يدعو له بالحياة ، كما عاشها واقعا ، وكما يتوقعها فى استبقاء حبها ، واحتشاد أمانيه فيها ، وعدم انصرافه عن هواها . ويدعو الشاعر السحاب أن يغادى قصر محبوبته ، ويصوبه ، كفاء ما سقت محبها من صرف الهوى والود ، ويود أن يخبره : هل تشغل محبوبته به وبحبه مثلما يشغل هو بها ؟ . ويحمل نسيم الصبا تحيته إليها ، ويتمنى أن يسعفه الدهر منها بالوصال .

٣ — ويستحضر الشاعر جمال محبوبته ، حين يرسمها لنا : ربيبة ملك رافلة فى النعمة ، فائقة على بنات جنسها ، بيضاء صافية ، ذات شعر أشقر ، تصففه على هيئة التاج . تتأود من العقود ، وتدميها الخلاخيل ، مخدومة ، لها من يكفيها شئون قصرها ، ذات جمال طاغ ، تطالعها فتمتلى بمثل الكواكب الزهر . ويقر على نفسه أنه - بالشرف والمنصب الاجتماعى - غير كفء لهذا الجمال المثالى ، ولكنه - بالمودة والإخلاص - حقيق بها وكفء لها . وهنا يذكر النعمة الغامرة ، التى طالما نعم بها فى حضرتها ، وطابت له ملذاته ومناه ، وخطر منه - مزدهيا - فى بحبوحة من العيش .

ولما كان هذا كله لا يتصور وقوعه إلا لواحدة من النساء ، ذات قدر عال ، لا تشارك فى صفاتها ؛ يقول لها : إنه إجلالا لهذا القدر العالى لا يسميها ، فإن وصفها يدل عليها ، ويشير إليها .

٤ — ويأتى دور النجوى ، فيبثها إياها ، ويبدؤها بمثل ما بدأ به القصيدة ، يوازن بين ما كان فيه من نعيم وما هو فيه الآن من جحيم ، ويتذكر ليالى اللقيا والوصال السعيدة المسعدة ، حيث كانا يلتقيان ، ويطويان الليالى ، لا يحس بهما أحد ، ولا يشعران بمرور الزمن ، إلا ساع تلوح تباشير الصباح الفضاح . ويقول : إن العقل يدعوه إلى الصبر ونسيان الحزن ، ولكن لوعة الفراق كانت أعمق أثرا من الانصياع للعقل وما يدعو إليه ، حتى بدا الصبر شيئا خارجا عن ذات النفوس ، فهو يُستدعَى ويتطلب ويجتلب . ولكن هواها لم يفارق ذات نفسه ، فما يزال يرشفه ويمص رحيقه وينشد فيه الرى ، وإن كان كلما شرب منه تجددت رغبته فيه . صنيع الهوى المضنى . وإذا كان قد أرغم على الفراق الجسدى والاغتراب فإنه يتمثل محبوبته أمامه ويقيد خاطره بها وينصرف بحقيقته إليها عن مجالس الشرب والغناء ، مهملا ما تدعو إليه هذه المجالس من انطلاق .

٥ — وأخيرا يطلب إليها أن تدوم على العهد محافظة ، مادام هو محافظا عليه ، ولم تلفته عنها أية أنثى سواها ، ولم يصب إلى غيرها ، ولن يصبو . فلتنعم المحبوبة بالوفاء وبالوصال ، وإن لم تقدر على تحقيق هذا الوصال فلا تبخل بذكر محبها فى ذات نفسها ، ولترسل طيفها يحوم عليه ، وحبذا لو أجابته ؛ بهذا تسدى إليه يدا بيضاء ، ما ينفك يذكر أمثالها منها .

ويختم القصيدة ببيت يبعث فيه السلام ، ما بقيت من الحب صبابة ، تفضح عشقه ، وتعلن ما يخفى ويكتم ، بالرغم من محاولات سترها وإخفائها .

الجمال التصويرى :

ملأ « ابن زيدون » قصيدته بالصور ، التى أراد منها أن تجلو معانيه ، وتجسم خاطراته . وسلك إليها أكثر من طريق :

فمن طريق التشبيه والاستعارة :

- يصور أن حزنه الواقع قد ألبسه . ألبسه إياه هؤلاء الأحبة بانتزاحهم عنه (٣) .

- يستعير للوصل أفنانا ، فهو يهصرها (١٦) .

- يصور محبوبته ريحانة لروحه (١٧) .

- يشبهها فى بياض بشرتها بالفضة الخالصة (٢٥) . ويشبه جمال وجهها بجمال الكواكب الزهر (٢٨) ؛ ففيه الخد الوردى الغض ، والصفحة البيضاء العطرية (٣٠) .

- يستعير زقوم جهنم وغسلينها لشقائه الواقع ، وسدرة الجنة وكوثرها لنعيمه الزائل (٣٥) .

- يشخص الوصل بحيث جعله ثالثهما عند اللقاء ، كأنه هو الذى دبر أمره ، ويشخص السعد ، إذ جعله الحارس الأمين إلى جوارهما (٣٦) .

- يستعير لكلا شخصه وشخص محبوبته حين الوصال لفظ السر ، ويرشحه بأن يجعله مكتتما فى خاطر الظلماء ، ويجسم هذه الظلماء فى شخص يخطر له ، والصبح فى إنسان ذى لسان (٣٨) .

وعن طريق المجاز :

- يسند إلى الزمان الإضحاك والإبكاء (٤) .

- يدعو لعهد المسرات السالف بالسقيا ، والسقيا علامة الحياة (١٧) .

ـ يدعو سارى البرق أن يغادى قصرها ، ويسقيها ، ويسأل عما يشغلها ، ويدعو نسيم الصبا أن يبلغها تحيته (٢٠ ـ ٢٢) .

ـ يلح على الزمان أن يقضيه الوصال ، إسعافا منه ، فقد أمسى فى حال تقتضى هذا الإسعاف (٢٣) .

وعن طريق الكناية :

ـ يلح عليه الحزن ، ويشق عليه الفراق ، فيتمنى أن لوكان أسلم ـ يوم الفراق ـ روحه إلى بارئها ، ونمى إلى نفسه ، حيث إنه الآن لا يطيق صبرا عن محبوبته (٢) .

ـ يتصور حساده قد استجيبت دعوتهم فيه ، فانحل ما بينه وبين محبوبته وانقطع ما كان يصلانه (٥ و ٦) .

ـ يستبد به القلق ، وهو يتوهم أن محبوبته قد ترضى ـ بانصرافها عنه ـ أعداءهما ، ولهذا يدعوها إلى ألا ترضيهم ، ويعلى من قيمة الوفاء فى الحب (٨ ـ ١٠) .

ـ يعلن أنه كان يظن فى اليأس سلوة عن الحب ، يجربه ، فما زاده إلا ولوعا بمن يحب وحرصا . وعلامة ذلك فى الشوق الحار المقيم فى جوانحه لا يدع لها فرصة للتطرية ، وفى الدمع المنسكب الذى لا ينفد (١١و ٢) .

ـ يبرح الأسى والحزن به ، ولولا بقية من التأسى لقضى (١٣) .

ـ يطمئن محبوبته على بقاء عهده ، أن طالما غير النأى المحبين ، ويقسم لها على استدامة أمانيه فيها ، وعدم التفكير فى غيرها (١٨ و ١٩) .

ـ ينعت محبوبته بأنها ربيبة ملك من عنصر طيب وبأن شعرها زينة لها وتاج على رأسها ، وبأن العقود واللآلىء والخلاخيل تثقلها وتدميها وبأنها معتدلة القوام ، وبأنها منعمة مخدومة لا ترى الشمس إلا فى أكلتها (٢٤ ـ ٢٧) .

- يجعل مودته كافية لأن يكون كفؤا لها (٢٩) .

- يذكر نعيمه فى حضرة محبوبته فيذكر حياة مزهرة بالمنى واللذات ، ونعيما معجبا يجعل من يخطر فيه يتباهى (٣١ و ٣٢) .

- يرفع من قدرها أن يسميها باسمها ؛ إجلالا لها فحسبها الوصف إيضاحا وتبيينا ، لأنها متوحدة فى صفاتها منفردة بمزاياها .

وربما(١) أراد أن تطمئن إلى أنه لا يريد أن يشهر بها مهما جد من الأحداث(٣٣ و ٣٤) .

- يصور اجتماعهما للوصال فى عزلة حيث لا يشركهما فيه إلا الوصال نفسه ، وقد امتزجا امتزاج ممرين فى الخاطر ، وشملهما السعد بستارته والليل ببردته ، (٣٦ و ٣٨) .

- يجعل ريه من هواها سببا فى ظمئه إليها وإلى حبها ، فكلما شرب منه ازداد رغبة فيه ، ثم يقدم الدليل على استيطان حبها قلبه ، فما جفا ساليا وما هجر قاليا وما اغترب مختارا ، وإنه لمبق على هذا الحب ، ذاكره كل حين ،حتى فى الحين الذى ينسى ، حين القصف والطرب والغناء (٤١ – ٤٥) .

ويستمر فى الإدلاء بدفاعه : ما طلب خليلا غيرها ولا حبيبا سواها ، وإنه ليكفيه ذكرها إياه ، وإرسال طيفها بزوره . ويطمع أن توليه نعمة مودته من قبل أمثالها (٤٧ – ٥٠) .

ومن طريق المقابلة :

- يعرض صورة ما هو واقع فيه من بعد وجفوة ، مقابلا بما كان ينعم به من قرب وطيب لقيا (١) .

- يصور حاله الراهنة ، فى مقابلة حاله السالفة ؛ بصورة البكاء الذى يستدره الآن ، مقابلا بالأنس المضحك السار الذى كان ينعم به (٤) .

- ويخشى أن يسلمه يومه إلى فراق أبدى ، بعد ما كان أمسه محتشدا على الأمل فى اجتماع سرمدى (٧) .

---

(١) من على عبد العظيم : ابن زيدون ص ١٧١ .

ـ يوازن بين ليالى أنسه ، إذ جانب العيش طاق ، ومربع اللهو صاف ، وفنون الوصل دانية قطوفها ؛ وبين سواد واقعه (١٤ ـ ١٦) .

ـ يقابل بين واقعه الذى تصوره زقوما وغسلين ، وماضى نعيمه الذى تصوره أفياء الجنة وكوثرها العذب (٣٥) .

ـ يذكر الحزن ، حين نهت عنه النهى ، وينمى الصبر الذى تدعو إليه النهى ؛ ليشير إلى أنه وصل إلى حال أذهبت عقله ، وبددت رشده ؛ فهو ـ كما قال ـ لم بعد يعرف الصبر إلا أن يأخذه تلقينا ، ويقرأه مكتوبا (٣٩ و ٤٠) .

ـ يقابل ـ فى تجنيس ـ بين ما ينتابه من سقم ولوعة يدلان على صبابته ، وحرصه على الستر والكتمان (٥١) .

المجال الفنى :

١ ـ أول ما نلاحظه أن « ابن زيدون » أنفق من المعانى المطروقة فى الحب ، ولكنه عبر عنها بأسلوبه هو ، وصورها فى أكثر من صورة تسمو بهذه المعانى ، وتلزمنا ـ عاطفيا ـ أن نتعاطف معه ، ونستحضر تجربته ، وهى ـ كما أشرنا عند القول فى غزله (١) ـ تجربة تجاوز نغمة الأمل إلى القلق والحيرة واليأس والحرمان ، ومن ثم عاش على لوعة وذكرى ، وحنين ونجوى .

٢ ـ بدأ « ابن زيدون » قصيدته بالدخول فى موضوعه ، فأوضح من أول الأمر عذاب نفسه وقلق روحه ، وجعل يوازن بين حاضره الذابل وماضيه الراحل ، واجتر ذكرياته ، وأعظم من شأن نعمائه ، ثم عاهد على الوفاء ، ودعا بالحياة للعهد ، وللقصر ، ولساكنة القصر ، وكأنه يريد أن ينتشل كلا من « العدمية » التى فرضتها الغربة على نفسه ، ثم قدم لنا صورة ناطقة عن جمال محبوبته ، تجعلنا نتصورها فى أعلى عليين من

(١) انظر ص ٤٥ من هذا الكتاب .

الجمال وعذابه، فئة المجتمع النسوي، ثم عاد إلى قلقه، فاجاها، واستحث صبره، وثبت على حبه، واستزاد منه ريا، واعتذر من غربته بالجبرية، وكأنه هنا أراح نفسه، ودغدغ حسه، فأسلمنا إلى خاتمة هادئة، إذ يطلب إلى محبوبته أن تدوم على العهد لمحب مبق عليها، ولا يصبو إلى غيرها، ويتعلق بالصبابة التي بقيت له من هواها، ولا يشاء أن يجاهر بها، وإنما هو يحاول كتمانها، وإن كانت على الرغم منه تبديه، تبديها، فهتك سره، وتكشف أمره.

٣ — لم يقتصر الشاعر على بث حديث الغرام والشوق والهيام، ووصف ما ألم به من الجوى والضنى، وما أطاقه من الشوق واللوعة، وإنما عرج على محاسن محبوبته الجسدية، وعيشتها الناعمة الرافهة، وإن يكن قد أعطانا صورة جزئية عنها فما نظن أنه قصد إليها لتحلية شعره، وإنما قصد إليها غزلا، يطرق بها شاعر محبوبته، ويشعرها أنها في عينه — عين المحب — مثال الجمال الفائق. وليس من ريب في أن المرأة يسرها حديث الناس عن جمالها، وحلاوتها وطراوتها، ونعومتها؛ «والغواني يغرهن الثناء»، ومن هنا امتزج الغزل الحسي والغزل المعنوي في قصيدة «ابن زيدون».

٤ — يطلب إليها (البيت ٤٦) أن تدوم على العهد محافظة، ما دام هو محافظا عليه. وليس هذا حديث محب ذي إيثار، وإنما هو حديث عاشق يبذل في مقابل ما ينال. وخير من هذا بيته في القصيدة عينها:

لا تحسبوا نأيكم عنا يغـيرنا ... أن طالما غير النأي المحبينا

وبيته:

أولي وفاء، وإن لم تبذلي صلة ... فالطيف يقنعنا، والذكر يكفينا

وبيته :

أما هواك فلم نعدل بمنهله شربا ، وإن كان يروينا فيظمينا

فكل من هذه الأبيات الثلاثة مما يتفق معناه مع تطامن المحبين وقناعتهم.

ولعل البيت الأول — من هذه الأبيات — يتفق مع مجرى تفكيره في شغر مكانه ، واحتمال وجود عاشق آخر يشغل هذا المكان ، وخاصة إذا عرفنا أن « ابن زيدون » فارق « قرطبة » من بعد ما ألقى به في السجن ، ولقى العنت من « ابن عبدوس » غريمه في حب « ولادة » ، ومن غيره .

٥ — قلنا — لصالح البحث فقط — بتجزئة صور القصيدة ، ويبدو أننا أقمنا سياجا بين كثير من هذه الصور . والحق أن القصيدة محتشدة بالصور ، ولم يأت الشاعر بأي منها ؛ رغبة في البراعة ، وإنما ساقها تنساب في العبارة عن خواطره وإحساساته ، وتجسيدها ، وهي خواطر وإحساسات لم يكن يتصيدها مفردات ، وإنما هي جماع تجربته التي أومأنا إليها .

٦ — في أبيات المجموعة الثانية يلتصق « ابن زيدون » بالطبيعة ؛ فهو يستدعيها لتشاركه في إحساسه ، وفي نقل مشاعره إلى محبوبته : يدعو المطر إلى سقيا عهد السرور والقصر وساكنيه ؛ لأنه يتمثل كل أولئك أحياء تستحق أن تمد بزاد الحياة . ويدعو ساري البرق أن يتعرف أحوال محبوبته وشواغلها . لأنه هو مهموم بما يدور في خلدها . قلق على مكانته في ضميرها . ويدعو نسيم الصبا أن يحمل عنه تحيته إليها ، في رد تحيتها حياته هو . وبعد ذلك بأبيات رأينا الطبيعة نفسها ممثلة في جمال المحبوبة ؛ في صحن وجنتها زهر الكواكب ، وفي خديها ورد غض جلاه الصبا ، وفي القرب منها حياة مزهرة ذات فنون ، ونسيم ذو غضارة ووشي .

٧ — من البديع — غير ما رأينا من الطباق والمقابلة والتجنيس — تضمين من « القرآن الكريم » في هذا البيت :

ياجنة الخلد ، أبدلنا بسدرتها والكوثر العذب بزقوماوغسلينا

وفى هذا البيت :

إنا قرأنا الأسى يوم النوى سوراً مكتوبة ، وأخذنا الصبر تلقينا

٨ — ألفاظ القصيدة حلوة عذبة ، تتلقفها الأذن فى لين ويسر ، وتحدث فى النفس تناغما أو جرسا يعكس عاطفة الشاعر ، ويعبر عنها خير تعبير ، فالكلمات يتساند أكثرها ، ويستدعى بعضها بعضا ، ويلجأ الشاعر إلى المزاوجة والمقابلة فى الألفاظ والمعانى ، وعليهما يقوم كثير من جمال القصيدة ، كما أنه يكثر من الألفاظ والأوزان التى تدل على المشاركة ، فيبين أن العاطفة فى تجاوب مستمر ، وفى رجفة متصلة بين ماض حبيب وحاضر مؤلم . ومما زيد هذه الرجفة طولا تلك القافية الممدودة ، وهذه النونات الطويلة ، التى تضيف إلى جرس الشعر أنيناً موسيقيا(١) .

٩ — نشعر بقليل من القلق ، لوضع كلمة « الملبسينا » فى البيت الثالث، و « حاشاك » فى البيت الثامن والأربعين .

١٠ — انتقلت إلى الشاعر معان وعبارات وصور مشرقية ، وهذا أمر يشيع فى شعر الأندلسيين بعامة . وفى هذه الحالة يبدو الشاعر(٢) كأنما يقبس من عالم قومه المثالى أو الأسطورى .

ونحن لا نحمل على هذا الاتجاه ، بل نعده علامة الصحة الثقافية ، لأنه استقر فى نفس الشاعر من حيث لا يشعر ، فصار جزءا من كيانه الفكرى، وارتكز عليه بيانه وتصوره ومن أمثلة ذلك فى قصيدتنا : الدعاء بالسقيا (٧ و ٢٠) ، ومخاطبة السحاب (٢٠و٢١) ، ونسيم الصبا (٢٢) وهذا

---

(١) انظر (فى الأدب الأندلسى) لجودت الركابى — ص ٢١٤ .

(٢) اميليو غرسيه غومس : الشعر الأندلسى — ص ٢٨ من الترجمة العربية .

النسيم نفسه ـ ماذا يكون طيبه فى بلاد الأندلس؟ إنه يهب على شبه الجزيرة العربية من المشرق ـ من جهة الخليج العربى ـ طيبا ، فإذا جاء إلى بلادنا ـ « مصر » ـ تحول إلى ريح « السموم » ، وقلما ينتهى إلى المغرب . ولكنه الإرث الثقافى كما قلنا .

١١ — ومن التراث الثقافى أخذ « ابن زيدون » عدة معان أودعها قصيدته ، ونزعم أنه لم يتطفل فيها على موائد غيره ، فقد أملتها تجربته العارمة ، فتناولها من ذاته لا من هذه الموائد . ونذكر عدة أمثلة :

(أ) قوله :

كنا نرى اليأس تسلينا عوارضه ... وقد يئسنا فما لليأس يغرينا

من قول مجنون ليلى :

أليس وعدتنى ـ ياقلب ـ انى ... إذا ماتبت عن ليلى تتوب !
فها أنا تائب عن حب ليلى ... فما لك كلما ذكرت تذوب

فكلاهما فكر فى النسيان فلم ينفعه ، وفى السلوى فلم تجده .

(ب) بيت « ابن زيدون » فى رواية « قلائد العقيان »(١) .

إن كان قد عز فى الدنيا اللقاء ففى ... مواقف الحشر نلقاكم . ويكفينا

من قول « جميل بن عبد الله » :

وإنى لراض من بثينة بالذى ... لو ابصره الواشى لقرت بلابله
بلا ، وبألا أستطيع ، وبالمنى ... وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى ، وبالحول تنقضى ... أواخره لانلتقى وأوائله

---

(١) ص ٨٢ ونرى هذا البيت مقحما ، وإلا فكأنه بعد البيت التالى : سران فى خاطر .

سوى أن « ابن زيدون » جعل موعده الحشر فلم يطمع فى لقاء الدنيا ، أما « جميل » فإن موعده مايزال رهنا بهذه الحياة .

(ح) يقول « ابن زيدون » :

سران فى خاطر الظلماء يكتمنا   حتى يكاد لسان الصبح يفشينا

سبقه إلى معناه المثل العربى : « الليل أخفى للويل » .

و « ابن المعتز » فى قوله :

لاتلق - إلا بليل - من تواصله   فالشمس نمامة ، والليل قواد

و « المتنبى » فى قوله :

أزورهم وسواد الليل يشفع لى   وأنثنى وبياض الصبح يغرى بى

إلا أن « ابن زيدون » لم يقنع بالوصال فى الليل والانصراف عند الصباح ، وإنما جرد من شخصه وشخص محبوبته « سرين » ، وجعلهما فى خاطر الظلماء ، التى قلنا من قبل : إنه شخصها وجعل منها إنسانا يخطر له ، كما شخص الصبح بعد ذلك وجعل له لسانا فضاحا ، يفضح هذا السر المطوى .

(د) يقول « ابن زيدون » :

أما هواك فلم نعدل بمنهله   شربا ، وإن كان يروينا فيظمينا

وقد روى - فيما أنشد الثعالبى - :

رضاب الحبيب يشفى عليلا   ثم يفضى إلى المزيد غليلا

وروى :

يارب ريقبات بدر الدجى   يمجه بين ثناياك

يروى ولا ينهاك عن شربه   والماء يرويك وينهاك

وروى :

ريق إذا ماازددت من شربه ... ريا ثناك الرى ظمآنا
كالخمر أروى ما يكون الفتى ... من شربها أعطش ما كانا

و « ابن زيدون »(١) يجمل المعنى بهذ الطباق الموسيقى بين « بروينا وبظمينا » متعانقتين . وانظر إلى « الفاء » وموقعها من هذا الربط ، وكيف جعلت الظمأ كأنه نتيجة لهذا الرى ، مترتبة عليه ، تابعة له مباشرة ، ثم انظر أخيراً كيف جمع المعنى فى كلمتين صغيرتين من البيت .

١٢ — أعجبت هذه القصيدة كثيراً من الشعراء ، فعارضوها ، وما أظن شاعراً أتيح له أن يعارضها وأحجم عن هذا .

ومن معارضاتها الشهيرة قصيدة « أبى بكر بن الملح »(٢) .

هل يسمع الربع شكوانا فيشكينا ... أو يرجع القول مغناه ، فيغنينا

ومنها :

ياباخلين علينا أن نودعكم ، ... وقد بعدتم عن اللقيا لخبونا
قفوا نزركم . وإن كانت فرائدكم ... نزراً ، ومنكم بالوصل عنونا
مهلا . لم نعتقد دين الهوى تبعا ، ... ولا قرأنا بصحف المس تلقينا
قد نصرف العدل يغوينا ويرشدنا ... ونترك الدار تسلينا وتشجينا
ونتبع الحى ، والأشواق محرقة ، ... تعوم بالماء ، والأرحام تحمينا
كواكب بسماء النفع قد جعلت ... لنا رجوما ، وما كنا شياطينا

(١) عن حسن جادحسن : ابن زيدون ص ٩١ .
(٢) الذخيرة ١/٣١١ ونفح الطيب ٢/٣٥٠ .

ومن معارضاتها قول « شمس الدين محمود الكوفي الواعظ »(١) :

ملابس الصبر نبليها ، وتبلينا ، ومدة الهجر نفنيها ، وتفنينا
شوقاً إلى أوجه ، متنا بفرقتها حزنا وكانت تحيينا فتحيينا
كنا جميعا ، وكان الدهر يسعدنا، والكائنات بكأس الأمن تسقينا
فالآن قرت عيون الحاسدين بنا، بما جرى ، واشتفت منا أعادينا

ومن معارضاتها قصيدة « صفي الدين الحلي » (٦٧٧ - ٧٥٠ هـ) في الفخر :

سل الرماح العوالي عن معالينا ، واستشهد البيض هل خاب الرجا فينا
لقد سعينا ، فلم تضعف عزائمنا عما نروم ، ولا خابت مساعينا
قوم ، إذا استخصموا كانوا فراعنة يوما ، وإن حكموا كانوا موازينا
إذا ادعوا جاءت الدنيا مصدقة ، وإن دعوا قالت الأيام : آمينا
إنا لقوم ، أبت أخلاقنا شرفا أن نبتدي بالأذى من ليس يؤذينا
بيض صنائعنا ، سود وقائعنا ، خضر مرابعنا ، حمر مواضينا(٢)
لا يظهر العجز منا دون نيل منى ، ولو رأينا المنايا في أمانينا

وفي العصر الحديث عارضها « أحمد شوقي » بقصيدة(٣) :

يا نائح الطلح أشباه عوادينا نشجى لواديك أم نأسى لوادينا

---

(١) فوات الوفيات ٢/٣٩٤ .

(٢) الصنائع : جمع صنيعة وهي الاحسان ، وبياضها إعلانها وإشهارها بالحق والعدل والخير . الوقائع : يقصد بها أيام الحروب وهي سود على الأعداء . المرابع : أي الأراضي التي يرتبع فيها . المواضي : هي السيوف وحمرتها مما تسيل من دماء الأعداء . ومن هذه الألوان اتخذ علم الثورة العربية .

(٣) الشوقيات ٢/١٠٣ .

و « عبد الرحمن شكرى » بقصيدته (ليلة الحسن)(١) :

أحيا الهواجس ماض من أمانينا فعاود القلب عهداً كان مدفونا

وقصيدة « شوقى » من (أندلسياته) ، أى من أشعاره التى أنشأها حين كان منفيا فى (إسبانيا) ، فاستثير إلى ذكرى الأندلس ، ودفع إلى قراءة شعرائها . ولقد كانت معارضته لقصيدة « ابن زيدون » ناشئة من تشابه حاليهما فى الغربة والبعد عن الديار وأهلها . ومما يقول « شوقى » من هذه القصيدة التى تجاوز الثمانين بيتاً :

يا نائح الطلح أشباه عوادينا نشجى لواديك أم نأسى لوادينا(٢)
ماذا تقص علينا غير أن يدا قصت جناحك جالت فى حواشينا
رمى بنا البين أيكا غير سامرنا ـ أخا الغريب ـ وظلا غير نادينا
كل رمته النوى . ريش الفراق لنا سهما ، وسل عليك البين سكينا(٣)
إذا دعا الشوق لم نبرح بمنصدع من الجناحين ، عى ، لا يلبينا
فإن يك الجنس ـ يابن الطلح ـ فرقنا ؟ إن المصائب يجمعن المصابينا

. . . . .

يا سارى البرق يرمى عن جوانحنا بعد الهدوء ، ويهمى عن مآقينا
لما ترقرق فى دمع السماء ، وما هاج البكا ، خضبنا الأرض باكينا
الليل يشهد لم تهتك دياجيه على نيام ، ولم تهتف بسالينا
والنجم لم يرنا إلا على قدم قيام ليل الهوى للعهد راعينا
كزفرة فى سماء الليل حائرة مما تردد فيه حين يضوينا

---

(١) ديوان عبد الرحمن شكرى — ص ٣٨٥ — طبعة ١٩٦٠ .
(٢) الطلح : واد فى ظاهر إشبيلية والعوادى : المصايب .
(٣) ريش السهم : ألصق عليه الريش ساعة إعماله .

بالله إن جبت ظلماء العباب على | نجائب النور محدوا بـ«جبرينا»(١)
فقف إلى النيل واهتف فى خمائله ، | وانزل كما نزل الطل الرياحينا
ويا ممطرة الوادى سرت سحرا ، | فطاب كل طروح من مرامينا
ذكية الذيل ، لو خلنا غلالتها | قميص «يوسف» ، لم نحسب مغالينا
جشمت شوك السرى حتى أتيت لنا | بالورد كتبا ، وبالريا عناوينا
فلو جزيناك بالأرواح غالية | عن طيب مسراك لم تنهض جوازينا
هل من ذيولك مسكى ، نحمله | غرائب الشوق وشيا من أمالينا
إلى الذين وجدنا ود غيرهم | دنيا ، وودهم الصافى هو الدينا
يا من نغار عليهم من ضمائرنا ، | ومن نصون هواهم فى تناجينا
ناب الحنين إليكم فى خواطرنا | عن الدلال عليكم فى أمانينا
جئنا إلى الصبر ، ندعوه كعادتنا | فى النائبات ، فلم يأخذ بأيدينا
وما غلبنا على دمع ولا جلد ، | حتى أتتنا نواكم من صياصينا(٢)
ونابغى ، كأن الحشر آخره ، | تميتنا فيه ذكراكم ، وتحيينا(٣)
نطوى دجاه بجرح من فراقكم ، | يكاد فى غلس الأسحار يطوينا
بتنا نقاسى الدواهى من كواكبه ؛ | حتى قعدنا بها ، حسرى تقاسينا
يبدو النهار ، فيخفيه تجلدنا | للشامتين ، ويأسوه تأسينا

---

(١) جبرين : جبريل .
(٢) الصياصى : الحصون .
(٣) النابغى : الليل الطويل ، مأخوذ من بيتى النابغة :

كلينى لهم يا أميمة ناصب | وليل أقاسيه بطىء الكواكب
تطاول حتى قلت : ليس بمنقض | وليس الذى يرعى النجوم بآئب

سقياً لعهد ، كأكناف الربا رفة ، أنى ذهبنا ، وأعطاف الصبا لينا(١)
إذ الزمان بنا غيناء ، زاهية ، ترف أوقاتنا فيها رياحينا
الوصل صافية ، والعيش ناغية ، والسعد حاشية ، والدهر ماشينا

. . . .

ولم ندع لليالى صافيا ، فدعت (بأن نغص فقال الدهر : آمينا) .

ومن اليسير استخراج الأبيات المتناظرة فى معانيها ، أو فى مبانيها ، أو فى تصويرها . لكننا لا ننسى أن سبق « ابن زيدون » بالتجربة يعطيه الفضل ، وأن هذه التجربة استغرقت « شوقى » إرثا ، وكان له من تجربته الخاصة المشابهة مدد جعله ينفق من عنده ، ومن قصيدة « ابن زيدون » على السواء . ومن الأبيات المتناظرة :

ابن زيدون	أحمد شوقى
- غيظ العدا . . البيت	ولم ندع لليالى . . البيت
- لم نعتقد بعدكم . . البيت	إلى الذين وجدنا . . البيت
- نكاد حين تناجيكم . البيت	يبدو النهار . . . البيت
- إذ جانب العيش . . البيتان	إذ الزمان بنا غيناء . . البيتان
- ليسق عهدكم . . البيت	سقيا لعهد . . البيت
- ياسارى البرق . . البيتان	يا سارى البرق . . الخمسة الأبيات
- ويا نسيم الصبا . . البيت	ويامعطرة الوادى . . الثلاثة الأبيات
- لاغرو فى أن ذكرنا . . البيت	جئنا إلى الصبر . . البيت
- إنا قرأنا الأسى . . البيت	وما غلبنا على دمع . . البيت

(١) الرفة : النضرة .

ونأتى إلى « عبد الرحمن شكرى » فنرى أن الذى دعاه إلى معارضة نونية « ابن زيدون » إعجابه بها ، فهى عنده أحسن قصيدة فى نسيب الأندلسيين ؛ لأنها تجمع بين صفاء الوجدان وعلو الصنعة ، وتذكره بما يحكى عن جماعة من الطيور إذا حان حينها جمعت قوى روحها ، وأطلقتها فى تغريدة ، قبل أن تفارق الحياة(١) . ومما يقول « شكرى » فى قصيدته (ليلة الحسن) :

أحيا اللواعج ماض من أمانينا	فعاود القلب عهداً كان مدفونا
وكان عهد الهوى يا حسن يضحكنا	فصار عهد الهوى يا حسن يبكينا
مالى وللحسن ، لا أمرى بمقتبل ،	ولست بالعيش واللذات مفتونا
ما العيش إلا فى ليال فى الهوى سلفت ،	واهاً لها حسنات لا تواتينا !
فى ذكرها نفحات الحب عاطرة ،	تهفو علينا ، فتصبينا ، وتحيينا
إن تنس لا أنس ليلات لنا سلفت ،	إذ أنت حلم لذيذ فى ليالينا
يا من رأى حلماً ، بالحسن مرتدياً ،	نسعى زليه ، ويسعى فى مساعينا
يرنو إلينا ، فلا وهم ، ولا خدع ،	وإن يمس فلا تخطيه أيدينا
حسن تأنق فيه خالق ، لبق ،	راض الفنون ، فلبته أفانينا
كأنه صاغكم ؛ كيما يحببكم ،	يا فتنة الحسن ، قد جار الهوى فينا
كأنه صاغكم من عسجد بهج ،	ومرمر ناصع ، بالثلون يسبينا
فجاء حسنك رى النفس ما ظمئت ،	فالعيش يظمئنا ، والحسن يروينا
هل صاغ من ورق الأزهار حسنكم ،	فكنت فى جنة ورداً ونسرينا ؟ !
أم من قطوف جنى الفردوس صاغكم ،	إن القطوف إلى الفردوس تشهينا !

. . . .

يا حسن ، من لى بسحر ، مثل سحركم ،	سحر العيون ، الذى قد بات يبلينا

---

(١) انظر مقاله (أنواع النسيب والتشبيب فى شعر العرب) . المقتطف : ابريل ١٩٣٩ م .

ياحسن ؛ من لى بسحر ، أتقيك به؛   فالحسن يسحرنا ، والسحر يرقينا
يا حسن ، هل أنت ناس ليلة سلفت ،   طاف الغرام بها يا حسن ، تسقينا
ياحسن لا تحسبن البدر يشغلنا .   يا حسن ؛ لولاك ما ابيضت ليالينا
لم أنس قولى له يوما أمازحه ؛   كيما أضاحك ثغرا منه يلهينا
مذ ألف جيل مضت قد كنت أعرفكم   ولم أدن غير حبي حسنكم دينا
لا تخف عنا الذى ندرى ، فإن لكم   سيما تمز ، وأوصافا أفانينا
فأنت أنت إلـه الحسن. كم سجدت   لك النفوس ، ولباك المجبونا !
جاذبته كفه ؛ كى لا يفارقنى ؛   فنهل العيش حلو فى تدانينا
وقوله لى - فى دل ومعتبة - :   أظمأتنا من قريض منك يروينا
فصف لنا ليلنا شعرا تقل عجبا ؛   فإنما الشعر إلهام يناجينا
هذا قليل مقال أنت باعثه .   إن شئت زدتك منه لو توانينا

وهذه القصيدة لم تقتصر فى معارضتها على النظم على الوزن والقافية، وإنما شارك « شكرى » فيها « ابن زيدون » فى البحث عن الحسن ، وإن اختلفا فى أن هذا يحث عنه لدى صاحبته « ولادة » ، أما « شكرى » فيتخيل الحسن مجسما كالأفراد . أو نقول : إنه لم يشأ أن يسمى صاحبة (أو صاحب) الحسن ، فاختار الحسن نفسه يخاطبه . فكأنه نظر إلى بيتى « ابن زيدون » : (لسنا نسميك . . . البيتين) .

ومطلع « شكرى » يتفق مع مطلع « ابن زيدون » فى الابتداء بقالب الفعل الماضى الرباعى الناقص ، وإنهاء الجملة بالصلة ، وفى المعنى العام الذى يشكو البعد ، ويعيش على الذكرى .

ونضع الأبيات المتناظرة فى القصدتين وجها لوجه ، فهى ناطقة بالدلالة على أن « شكرى » قد حفظ نونية « ابن زيدون » ، وهضمها هضما ، وأنها

سيطرت عليه وهو يعارضها ، كأنما كانت تلح عليه أن يفرغها كما هى ، وإن وجهها - كما ذكرنا - وجهة الحسن المتخيل ، لا وجهة الحسن المنظور :

ابن زيدون	شكرى
— أن الزمان الذى ... البيت	وكان عهد الهوى ... البيت
— حالت لفقدكم ... البيتان	ما العيش الا ليال ... الثلاثة الأبيات
— وإذ هصرنا ... البيت	أم من قطوف جنى ... البيت
— ياسارى البرق ... البيت	ياحسن هل أنت ناس ... البيت
— أو صاغه ورقا ... البيت	كأنه صاغكم من عسجد .. البيت
— ياروضة طالما ... البيت	هل صاغ من ورق .. البيت
— وياحياة تملينا ... البيت	حسن تأنق فيه ... البيت
— أما هواك ... البيت	فجاء حسنك ... البيت
	+ وقوله لى فى دل .. البيت
— لا أكؤس الراح ... البيت	لا تخف عنا ... البيت
— فما استعضنا ... البيت	مذ ألف جيل ... البيت
— ولو صبا نحونا ... البيت	ياحسن لا تحسبن ... البيت

النص الثانى (*)

يحن إلى محبوبته بعد فراره من سجنه

١ - إنى ذكرتكِ بالزهراء ، مشتاقا ،
والأفقُ طلقٌ ، ومرأى الأرض قد راقا

٢ - وللنسيم اعتلالٌ فى أصائلهِ ، كأنّه رقّ لى ، فاعتلّ إشفاقا

٣ - والرّوضُ من مائهِ الفضىِّ مبتسمٌ ،
كما شققتَ عن اللّبات أطواقا

---

١ و ٢ و ٣ - الزهراء : ضاحية من ضواحى قرطبة ، بناها « عبد الرحمن الناصر » : طلق : يقال : الرجل طلق الوجه ضاحكه ، واليوم طلق معتدل ليس حاراً ولا بارداً ، راق : أعجب ورواية قلائد العقيان : « ووجه الأرض قد راقا » .

اللبات . جمع لبة وهى موضع القلادة من الصدر . الأطواق : جمع طوق ، وهو حلية تتخذ ، وأراد به ما يطيف بالعنق من الثوب . ورواية الذخيرة : « كما حللت عن اللبات » .

وفى الأبيات الثلاثة : أنه ذكرها بهذه الضاحية مشتاقاً إليها ، وكان الجو جميلا ووجه الأرض مزدانا ، والنسيم عليلا ، والماء صافيا رائقا ينساب فى الأرض كما ينساب طوق الثوب عند ترائب النحر والصدر .

(*) ديوان ابن زيدون . طبعة كيلانى وخليفة ص ٢٥٧ - وطبعة محمد سيد كيلانى ص ١٧١ .

٤ ـ يومٌ ، كأيامِ لذاتٍ لنا انصرَمَتْ ،
بِتْنا لها — حينَ نامَ الدهرُ — مُرّقا

٥ ـ نلهو بما يَسْتَميلُ العينَ ، من زَهَرٍ
جالَ الندَى فيـــه ، حتى مالَ أعناقا

٦ ـ كأنَّ أعينَهُ — إذ عايَنَتْ أرَقِي —
بَكَتْ لِما بي ، فجالَ الدمعُ رقراقا

٧ ـ ورْد تألّقَ في ضاحي منابِتِه ، فازْدَادَ منه الضحَى في العين إشراقا

٨ ـ سَرَى ، يُنافِحُهُ نيلوفرٌ ، عَبِقٌ ، وسْنَانُ ، نَبَّهَ منه الصبحُ أحداقا

٤و٥ — يذكر في هذا اليوم أيام لذاته التي انصرمت ، ويذكر غفلة الزمان عنه وعن محبوبته ، حينما كان يسرقان الود ، ويلهوان ، والطبيعة مستجيبة لهما تشاركهما البهجة والسرور .

٦ — واليوم ينظر بعيني أرقه حزيناً كئيباً فيرى الطبيعة عاطفة عليه حانية ، تبكي لبكاه وتألم لألمه .

٧و٨ — تألق : ازداد لمعانا ضاحي منابته : منابته الضاحية أي التي تبرز للشمس فهي من أجل هذا مرتفعة

سرى : سار ليلا . النيلوفر : النبات المسمى « عباد الشمس » وهو كما يشير البيت ينكمش ليلا ويتفتح نهارا فكأنه ينام ويصحو . ورواية القلائد : يناجيه ، والنافجة ، الريح .

وفي البيتين : مازال يذكر الطبيعة المتعاطفة ، فيذكر الورد المتألق الذي زاد النهار إشراقا وزاد الليل ـ مع النيلوفر ـ طيباً .

٩ ـ كلّ يهيجُ لنا ذِكرَى ، تُشوّقُنا   إليك ، لم يَعْدُ عنها الصدرُ أنْ ضاقا

١٠ ـ لاسكّنَ اللهُ قلباً ، عَنّ ذِكرُكمُ
فلم يَطِرْ بجناحِ الشّوق خَفّاقا

١١ ـ لو شاء حَمْلى نسيمُ الصبح حين سرى
وافاكم بفتىً ، أضناهُ ما لاقَى

١٢ ـ لو كان وَفّى المُنَى فى جمعِنا بكمُ
لكانَ مِنْ أكرمِ الأيامِ أخلاقا

١٣ ـ يا علِقِيَ الأخطَرَ الأسنى الحبيب إلى
نفسى ، إذا ما اقتنى الأحبابُ أعلاقا

١٤ ـ كان التّجارى بمحض الودّ مُذ زمنٍ
ميدانَ أنسٍ ، جرَيْنا فيه أطلاقا

٩و١٠ — كل من الطبيعة الحاضرة والطبيعة المستحضرة هاج شوقه ، فطار إليها بجناح الشوق الخفاق .

١١ و ١٢ — أضناه : أمرضه من الضنى . يقول : لقد بلغت من الضنى مبلغا خطيراً حتى يكاد نسيم الصبح يقدر على حملى ، وليته فعل ليحقق المنى فى اللقاء .

١٣ و ١٤ — العلق : النفيس من كل شيء وجمعه أعلاق . الأخطر : ذو الخطر والقيمة والشأن . الأسنى : الأرفع من السناء وهو الرفعة . ورواية القلائد : يا علقى الأخضر الأسنى الحبيب إلى قلبى » . =

١٥ ـ فالآن أحْمَد ماكُنّا لِعهدِكُمُ ، سَلَوْتُمُ ، وَبَقِينا نحنُ عُشّاقا

═ التجارى : المتسابق . أطلاقا : أشواطا جمع طلق وهو الشوط فى السباق .

فى هذين البيتين يدعوها نفيسة ، ذات خطر ورفعة ، حبيبة إلى قلبه، ويذكر وقتا استبقا فيه إلى حيث الود والأنس والبهجة .

١٥ — يحمد عهداً سلف ، ويبدى قلقا على ما يرى من سلو محبوبته مع دوام مودته لها .

تحليل ونقد

المجال الفكرى :

عرفنا(١) أن «ابن زيدون» وافى ضاحية (الزهراء) فى (قرطبة)، و «الربيع قد خلع عليها برده ، ونثر سوسنه ووروده ، وأترع جداولها ، وأنطق بلابلها . . . فتشوق إلى لقاء (ولادة) وحن ، وخاف ثالث النوائب والمحن ، فكتب إليها يصف فرط قلقه ، وضيق أمده إليها وطلقه ، ويعاتبها على إغفال تعهده ، ويصف حسن محضره بها ومشهده» هذه القصيدة .

وقد بدأها بحكاية وقوعه فى هذه الضاحية ، يدفعه الشوق إليها ، وقد وافاها ، والجو جميل ، والأرض مزدانة ، والنسيم عليل ، والروض ينساب ماؤه فى الأرض فضيا . وأذكره ما رأى من بهجة الطبيعة أيام

---

(١) ص ٤٩ من هذا الكتاب :

لذاته التى انصرمت فى سرقة الود فى غفلة من الزمان ، حيث كانت الطبيعة تشاركهما فرحاتهما ولذاتهما ، أما اليوم فتشاركه الطبيعة — وقد نظر إليها من خلال نفسه — أرقه وحزنه .

وهو يحمد للطبيعة عطفها عليه فيذكر الورد المتألق والنيلوفر الطيب ، وهو مدفوع إلى هذه الضاحية بشوقه ، الذى هده الضنى ، طامعاً فى اللقاء ، حتى يعيد عهداً تسابقا فيها إلى حيث الأنس والمودة .

ويختم قصيدته بحمد هذا العهد ، ويشعرنا بحيرته ما بين سلو محبوبته عنه وإبقائه هو على عشقه .

المجال التصويرى :

أعطانا الشاعر فى هذه القصيدة تجربة عاطفية صورها من خلال الطبيعة التى كانت مسرح هواه ، فتعاطفت معه ، وكأنها تدرك اطواء نفسه ، فهى تفصح عن مسراته حين يسر ، وتبين عن آلامه حين يألم . وهذه القصيدة(١) « تموج فيها عاطفتان : عاطفة الماضى الجميل تكسبه الطبيعة الحلوة مزيداً من الحسن ، وعاطفة الحاضر المحروم يكسو الطبيعة ثوباً من القتامة والكآبة . والشاعر إذا تحدث عن الماضى ابتسمت الطبيعة فى طلاقة الأفق ، وصفاء وجه الأرض وابتسام الروض ، وطرب الزهر ، وتألق الورد ، وإشراق الضحى ، وإذا تحدث عن الحاضر تمثل له فى اعتلال النسيم وإشفاقه ، وبكاء الزهر ، وجولان دمعه الرقراق ، ونعاس النيلوفر ؛ وبذلك يبدو اشتباك الطبيعة مع عواطف الشاعر ، التى يذكيها جو الذكرى ، باعثاً فى النفوس لحناً من الأسى والإشفاق والصدى العميق » .

(١) سيد نوفل : شعر الطبيعة فى الأدب العربى ص ٢٦٧ — القاهرة — ١٩٤٥ م .

الجمال الفنى :

التشبيه فى البيت الثالث (والروض عن مائه الفضى مبتسم ...) .

إذا نظرنا إليه من جانب التصوير وجدناه تشبيه هيئة بهيئة ، فالمشبه الهيئة الحاصلة من انسياب الماء الفضى اللامع فى الروض ، والمشبه به الهيئة الحاصلة من انشقاق أطواق الثوب عن مواضع القلادة من الصدر . وإذا نظرنا إلى هذا التشبيه من جانب تصويره لعاطفة الشاعر وجدناه يتمثل المحبوبة بعين الخيال ويستحضر مجالى فتنتها .

النص الثالث (*)

فى مدح « أبى الوليد بن جهور » وتهنئته بتقلد الحكم

المحبوب :

١ ـ ما للمُدام تديرها عيناكِ ، فيميل فى سُكْر الصِّبا عِطفاكِ

٢ ـ هلا مزجتِ لعاشقيكِ سُلافَها ببَرود ظَلْمك ، أو بعذب لماك

٣ ـ بل ما عليكِ ـ وقد محضتُ لكِ الهوى ـ

فى أن أفوز بحُظوة المسواك

٤ ـ ناهيكِ ظلماً أنْ أضرَّ بىَ الصدى بَرْحاً ، ونال البُرْءَ عودُ أراك

---

١ و ٢ ـ المدام : الخمر . العطف (بالكسر) : الجانب هلا : أداة تحضيض كما سبق . سلافها : خمرها . برود ظلمك : بارده ، والظلم : ماء الأسنان . اللمى : سمرة فى الشفة .

يخاطب محبوبته ، فيرى فى عينيها سحرا يسكر ، وتتمايل هى منه ، ويحثها على أن تمنح عاشقيها القبلات اللاذة المسكرة .

٣ و ٤ ـ محضت لك الهوى : أخلصته حظوة المسوك : يقصد منزلته وحظه على التشبيه ناهيك : حسبك . أن أضر : أن مصدرية داخلة على الفعل الماضى . الصدى : العطش الشديد . برحا : مشقة وشدة . عود أراك : هو المسواك ويؤخذ من شجر الأراك . =

(*) ديوان ابن زيدون : طبعة كيلانى وخليفة ص ٩ ـ وطبعة محمد سيد كيلانى ص ٤١ .

٥ ـ واهاً لعطفكِ ، والزمانُ كأنما ... صُبغتْ غضـــارته ببُرد صِباكِ

٦ ـ والليلُ مهما طال قصَّرطوله : ... هَاتى — وقد غفل الرقيبُ — وهاكِ

٧ ـ ولطالما اعتـل النسيمُ ، فخلتُه ... شـكواى رقّتْ،فاقتضتْ شـكواكِ

٨ ـ إن تألفى سِـنَةَ النئوم خليةً ... فلطالمــــا نافرتِ فىَّ كراكِ

٩ ـ أو تحتبى بالهجر فى نادى القلى ... فلَـكَمْ حللتُ إلى الوصـالِ حباكِ

= يقول لها : ما يضرك أن أفوز بما طلبت من القبلات ، وأن أحظى منك بمثل ما يحظى به المسواك ، ما دمت قد أخلصت لك الحب ، ومحضت الهوى : وإلا فأنت — بحرمانى مما اطلبه — تضربيننى ، من حيث تجودين بالبر، على عود الأراك .

٥ و ٦ و ٧ — واها : كلمة استحسان وتعجب . غضارة الزمان : نعمته وبهجته .

يقول : كنت فيما مضى تعطفين ، وتمنحين الزمان غضارته ، بما اكتسيت به أنت من أثواب الصبا والشباب ، وكنت تمائين الليل بهجة ، وتقصرين طوله بحديثك الممتع ، ولكم اشتكينا رقة ، وسط النسيم العليل .

٨ — النئوم : مبالغة فى النوم . خلية : خاليا لا يهمها أمر . الكرى : النوم .

يقول : إن تعتادى النوم ، خالية ، لا تبالين بى اليوم ، فقبلا غالبت النوم وعاديته ، محاولة أن تصرفى عنك الهوى ، فلا يؤرقك .

٩ — تحتبى بالهجر : تشتملى عليه ، وقد جعل الهجر محتبى به على سبيل الاستعارة ، تشبيها له بالثوب . القلى : البغض . الحبا جمع حبوة (بالكسر) وهو الاحتباء وأصله جمع الظهر والساقين باليدين أو بثوب.=

١٠ ـ أمّا مُنَى نفسى فأنت جميعُها ، ياليتنى أصــبحتُ بعضَ مُناكِ

١١ ـ يدنو بوصلكِ حين شطّ مزارُه وَهْمٌ ، أكاد به أقبّــل فاكِ

١٢ ـ ولئن تجنبتِ الرشادَ بغدرةٍ لم يَهْوَ بى فى الغىّ غيرُ هواكِ

المدوح:

١٣ ـ للجهورى أبى الوليد خلائقٌ ، كالروض ، أضحكه الغمامُ الباكى

١٤ ـ مَلِكٌ يسوسُ الدهرَ منه مهذَّبٌ ،

تدبيرُه المُلْكَ خــير مَلاكِ

١٥ ـ جارى أباه ، بعدماقات المَدَى ، فتــلاه بين الفَوْت والإدراكِ

١٦ ـ شمسُ النهار وبدرُه ونجومُه أبنــاؤه من فَرْقَدٍ وسِماكِ

١٧ ـ يستوضح الســارون زُهْرَ كواكبٍ

منهــم تنيرُ غياهبَ الأحـــلاكِ

= يقول : إن تركتنى إلى الهجر والقلى فكثيرا ما حللت حبونك ، بما كنت أتودد به إليك من الوصال والبر .

١٠ — المعنى : وضعت فيك كل أمانى نفسى ، وإنى لأتمنى أن أكون بعضا من أمانيكِ فهذا يكفينى .

١١ — شط مزاره : بعد يقول : ويكفينى الوهم بوصلك ، حين يدنو من خاطرى ، فأنشط له ، وأوسعه قبلات ؛ لأنه من عندك .

١٢ — يقول : أما إن غدرت ـ متجنبة الرشد ـ ووقعت أنا فى الغى ، فاعلمى أن ما أصابنى إنما هو منك ، وبسبب غدرتك .

١٣ — انتقل الشاعر إلى مدح أميره ، فذكر خلائقه الطيبة ، وشبهها بالروض الذى تجول فيه الحيــاة .

١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ — منه : من تجريدية .خير ملاك : ملاك الأمر=

١٨ ـ بشراك يادنيـــاوبشرانامعاً   هذا الوزير أبو اوليـــد فتاكِ

١٩ ـ . . . .   وصفت جمامُكِ واستُلِذّ جناكِ

٢٠ ـ تُلفَى السيادةُ ثَمَّ إن أضللتها   ومتى فقدتِ السَّروَ فهو هناك

٢١ ـ وإذا سمعتِ بواحد جُمعتْ له   فِرَقُ المحاسن فى الأنام فذاكِ

= قوامه . الفرقد والسماك: من النجوم النيرات. للسارون : السائرون ليلا . غياهب الأحلاك: ظلماتها مفردها غيهب، والأحلاك: جمع حلك وهو السواد.

المعنى: يمدح الأمير بحسن السياسة ، وبالتهذيب ، وبأنه جارى أباه الراحل فى حسن القيام على الأمر ، وبأنه جمع المجد من أطرافه ، فجده مشرق إشراق الشمس والقمر ، ومن حوله أبناء عظام ، بلغوا مبلغ الرأى ، يسترشد بهم إذا اطلحمت الأمور ، فكأنهم من حول أبيهم أمثال النجوم النيرات ، وتضىء للسارين ليلا .

١٨ — يعلن فرحته وفرحة الدنيا بأميره ، وقد جعله وزيراً ، لأن القوم كانوا ما يزالون على ولائهم للخلافة ولاء روحيا . وجعله فى الدنيا وواحدها ، لأن بجد (قرطبة) فى ذلك الحين كان أعظم الأمجاد .

١٩ — صدر هذا البيت ساقط من جميع النسخ . والجمام : الماء الكثير .

٢٠ و ٢١ — تلفى السيادة : توجد . وفى الديوان « تاق السيادة » ثم : هناك ، ولعل الإشارة إلى شىء فى صدر البيت المنقوص . أضللتها : ذهبت منك وافتقدتها ، والخطاب للدنيا . السرو : المروءة والشرف ، والوصف منه (سرى) .

يشير الشاعر إلى سيادة الأمير الذى تفتقد عند عظائم الأمور ، ويشير إلى اجتماع المحاسن له من دون الناس .

٢٢ ـ صمصامُ بادرة وطودُ سكينة وجواد غاياتٍ وجِذْلُ حِكاكِ
٢٣ ـ طَلْقٌ ، يُفَنَّدُ في السماح وجاهلٌ
مَنْ يَستشفُّ النـــارَ بالمحراكِ
٢٤ صَنَعُ الضميرِ إذا أجال بمُهرَقٍ يمناه في مَهَلٍ وفي إيشــــاكِ
٢٥ نَظْم البلاغةَ في خلال سطوره ، نظْم اللآلي التُّوم في الأســلاكِ

---

٢٢ - الصمصام : السيف . بادرة : حدة وغضب . الطود : الجبل العظيم . الجواد : الفرس . جذل حكاك : الجذل أصل شجرة قطع رأسها ، أو عود ينصب في العطن ، لتحتك به الإبل الجربى .

يشبه الشاعر أميره في نفاذه بالسيف المصمم الذى يحسم الامور ، ويشبهه في حلمه بالطود الثابت الساكن ، وفى تصميمه ومضائه بالجواد الأصيل الذى يسبق إلى الغايات لا يلوى على شيء ، وفى تجربته بالجذل الذى يسهم في الشفاء ، ومن هذا ما ورد على لسان « الحباب بن المنذر الأنصارى » في اجتماع (السقيفة) : « أنا جذيلها المحكك ، وعذيقها المرجب » .

فهذا الأمير فيه من الفضائل ما يجعله خير حاكم .

٢٣ – طلق : هاش باش يفند في السماح : يلام فيه يستشف النار . يبحث عما تحتها . المحراك : خشبة تحرك بها النار لتزداد اشتعالا وتوهجا .

يقول : إن أميره سمح إلى مدى بعيد ، حتى إنه قد يلام في سماحته ، لكثرة ما يعطى ويدع ، عن طيب خاطر وطبيعة فيه . ومن الجهل لومه في ذلك ، إذ ما يزيده هذا اللوم إلا جوداً على جود وسماحا على سماح .

٢٤ ، ٢٥ – صنع : حاذق ماهر ـ يقال : لسان صنع ، وشاعر صنع ، =

منافسة الزمان :

٢٦ نادى مساعيه الزمانُ منافساً : أحرزْتِ كل فضيلة ، فكفاكِ

٢٧ ـ ما الورد فى مجناه سامَرَه الندى
متحليا إلا ببعض حُلاك

٢٨ ـ كلا . ولا المِسْكُ النَّمُومُ أريجُه متعطرا إلا بوسْم ثناك

٢٩ ـ اللهْوُ ذ كرُكِ ، لا غِناء مُرَجَّعٍ يُفتنُّ فى الإطلاق والإمساك

٣٠ ـ طارت إليكِ بأوليائكِ هِزَّةٌ ، تهفو لها ـ أسفاً ـ قلوبُ عِداك

= وكانب صنع . مهرق:صحيفة . إيشاك : إسراع مصدر أوشك بمعنى أسرع.
اللآلى التوم . التوم جمع تومة وهى حبة من فضة .

المعنى . هذا الأمير أديب رائع البيان ، إذا كتب أجاد سواء تروى. أم أسرع ، فأنت تطلع من بيانه على نظام بديع ، يشبه نظم اللآلىء فى الأسلاك

٢٦ و ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ ـ سامره الندى : حادثه ليلا .
النموم : مبالغة ، من نم المسك أى سطع . أريجه : ريحه الطيب وتوهجه .
وسم ثناك : علامته ، والثنا من الثناء وهو المدح .

المعنى : نافس الزمان الأمير ، ثم رآه الزمان أهلا لكل فضل ، فأقره عليه ، إذ رأى فضائله التى أحرزها أعلى فى مظهرها من الورد الجميل ، وأحق بالثناء عليها من المسك المتوهج ، وأجدر أن يتغنى بها ، ولقد غمرت الأولياء بالخير ، فاهتزوا لها ، من حيث تركت الأعداء يهفون إليها أسفا .

الحكم الجديد :

٣١ ـ يأيها القمر الذى لسنائه وسناه تعنو السَّبعُ فى الأفلاكِ ؛
٣٢ ـ فَرحُ الرياسة إذ ملكتَ عنانها : فَرحُ العروس بصحة الإملاك
٣٣ ـ من قال إنك لستَ أوحدَ فى النهى والصالحاتِ فذاك بالإشراك
٣٤ ـ قلّدْنىَ الرأى الجيل ، فإنه حسبى ليومَىْ : زينةٍ وعِراك
٣٥ ـ وإذا تحدثتِ الحوادث بالرّنا شَزْرا إلىّ فقل لها : إياك
٣٦ ـ هو فى ضمان العزم يَعبسُ وجهُهُ لِلخَطْبِ ، والخلقِ النَّدى الضحّاك

---

٣١ و ٣٢ ـ السناء (بالمد) : الرفعة . والسنا (بالقصر) : الضوء تعنو : تذل . عنانها : عنان الرياسة على التشبيه ، والعنان الاجام للفرس . الاملاك (بالكسر) : عقد الزواج

يشبه الممدوح فى إمارته بالقمر فى سمائه ، تخضع الدنيا له ، ويملك زمام الحكم ، فتكون الفرحة للحكم أشبه بفرحة العروس للزواج

٣٣ ـ النهى (مفردا) العقل ، أو جمع نهية : العقل أيضا

يقول : إنك واحد فى العقل والصالحات ومن يقل بغير ذلك فكأنما أشرك ، لأنه يكفر الحقيقة الماثلة لكل ذى عين .

٣٤ و ٣٥ و ٣٦ ـ حسبى : يكفينى . يومى زينة وعراك : يقصد فى السلم وفى الحرب . الرنا : إدامة النظر . شزرا : نظرا بمؤخر العين ولا يكون إلا فى حال الغضب . يعبس وجهه : يكلح ويبدو متجهما . =

٣٧ ـ وأحَمَّ دارِيٍّ تَضاعَفَ عَرْفُه | لما أُبين بمسحقٍ ومَدَاكِ
٣٨ ـ والدَّجْنُ للشمس المنيرةِ حاجِبٌ | والجَفْنُ مثوى الصارم الفتاكِ
٣٩ ـ فكأنك محنك التى لو أنها | شخصٌ أحاوره لقلت : هناكِ

= يطلب الشاعر إلى أميره أن يقلده منصبا يليق به ، يزدان به ويفخر ، ويشارك منه فى قضايا السلم والحرب فى الإمارة . ويطلب اليه أن يدفع عنه أحداث الزمان إذا أنعم عليه ، فهو خير من يقفها ويمنعها من أن تمتد إلى من يصطنعهم ومنهم الشاعر .

ثم يذكر عزم أميره ومقدرته ، وذلك ما دفعه قبلا أن يطلب إليه الوقوف من دونه أمام أحداث الزمان ويحذرها من أن تنظر إلى صنيعته ؛ فإنه فى ضمان عزم الأمير العبوس فى وجه الخطوب ، وفى ضمان خلقه الندى المشرق .

٣٧ ـ وأحم : الواو واو رب ، وأحم : أسود صفة المسك محذوفا . دارى : نسبة إلى (دارين) ، وهو موضع فى (البحرين) يجود فيه المسك . مسحق ومداك : أداتان يفت المسك بأولاهما ، ويدق بالثانية .

يتحدث الشاعر عن نفسه فيقول : مثلى مثل الأمير إذ يستخرج مواهبى ويدفع بى إلى ممارسة الحكم كذلك المسك الأسود ، يحتاج إلى أن يسحق ويفت ويدق ، حتى تعرف جودته .

٣٨ ـ الدجن : إلباس الغيم السماء . يشبه الشاعر نفسه بالشمس المنيرة يمنعها الدجن أن تتراءى للناس لينتفعوا بها ، وبالسيف الصارم يمنعه جفنه من أن يعمل ، فهو يطلب إلى أميره أن يزيل ما يعترضه من عقبات ، وأن يبلوه .

٤٠ - دامت حياتك ما استُدِمتَ ، فلم تزل
تحيا بك الأخطار بعد هلاك

---

٣٩ و ٤٠ - الأخطار : جمع خطر ، وهو القدر .

يدعو لصحة الممدوح بالهناءة ، ولحياته بالدوام ، وللأقدار والأخطار أن تحيا به وتنهض .

تحليل ونقد

المجال الفكري :

١ - بدأ الشاعر قصيدته بالغزل ، فخاطب محبوبته، وهو يرى في عينها مثل سحر الخمر . فهذا السحر يسكرها ، ويميل عطفها ، ويحثها الشاعر أن تمنحه القبلات اللاذة المسكرة، وماذا يضرها أن تنيله مثل مايحظى به المسواك من فمها ، مادام قد أخلص لها الحب ومحض الهوى ، وإلا تفعل تضره من حيث تجود بالبرء على عود الأراك .

ويقول لها : كنت فيما مضى تعطفين على ، وتمنحين الزمان - من صباك - بهجته ، وتملئين الليالى أحاديث ممتعة ، ولطالما أحسست إلى جوارك برقة القشا كى مع رقة النسيم .

والآن - أيتها المحبوبة - إلا تبالى بى متعللة بحاجتك إلى النوم والراحة فقبلا حاولت أن تصرفى عنك هواى حتى لا يؤرقك ، وإن هجرت فأنا - بالوصال والمودة - أحل هجرانك فلقد وضعت فيك أمانى نفسى كلها ، وإنه ليكفيني أن أكون من بعض أمانيك، ويكفيني الوهم بوصلك يدنو منى فأنشط له واطيفك ،وألقاه بالقبلات ،هذا هو طريق الحب الراشد . أما إذا غدرت واجتنبت الرشاد فأنا واقع - بسبب ذاك - فى الغى لامحالة .

٢ - انتقل الشاعر - فى غير تمهيد - إلى مدح أميره «أبى الوليد بن جهور» فذكر خلائقه الطيبة الحية، ومدحه بحسن التدبير وحسن السياسة، مجاريا فى هذا أباه الراحل، وليس هذا بالأمر العجيب فى أسرته، فإن أفرادها يتوارثون المجد كابرا عن كابر، وهؤلاء أبناؤه من حوله بلغوا مبلغ الرأى، فهم ممن يسترشد برأيهم.

ثم حمل إلى نفسه وإلى الدنيا بشرى توليته مقاليد الأمر، وامتلاكه ناصية السيادة التى تفتقد لدى مثله عند عظائم الأمور، فهو واحد اجتمعت له المحاسن من نفاذ، وحلم، ومضاء، وحكمة، وسماحة، وحذق، وبيان رائع.

٣ — وعن طريق تجريد الزمان منافسا لمساعى الأمير أثبت له الشاعر كل فضيلة هى أحق بالنظر من الورد الجميل، وبالثناء من المسك النموم، وبالذكر من الغناء المرجع، وقد غمرت هذه الفضائل الأولياء والأحبة من حيث تركت الأعداء يهفون إليها أسفا.

٤ - وعاد الشاعر يذكر مكانة أميره، وفرحة الدولة به؛ لتفرده بالعقل وصالحات الأمور؛ ومن يقل بغير ذلك فقد أشرك وكفر الحقيقة الماثلة لكل ذى عين ومن هنا طالب الشاعر أن يقلده الأمير منصبا يليق به، يزدان به، وبه يفاخر، ورجاه أن يتكفل بما عرف عنه من عزم وسماح - بأحداث الزمان، فإنما هو - أى الشاعر - صنيعة أميره، فهو فى ضمانه. ويلمح الشاعر - عن طريق التمثيل - إلى مواهبه الدفينة، التى تحتاج إلى أن تستخرج.

ويختم قصيدته بالدعوة لأميره بهناءة الصحة، ودوام الحياة، وحياة الأخطار، ولا أقدار به.

المجال التصويري :

سايرت الصورة البيانية غرض الشاعر :

١ — فعندما تغزل كان منتشيا بالحب ، مخمورا من عيني محبوبته ، يغار من عود الأراك الذي تتخذه مسواكا ، منلهفا على مثل أيام مضت ، خلعت عليه فيها من صبوتها وشبابها ، وأمتعته بأحاديثها ، وشملته برقتها وهو الآن يلين صلابتها وطبيعة الدلال فيها ، فينافر كراها ويبقى على ودها ، ويستدني وصلها ولو أتاه وهما وخيالا ، وينسج لها غزلا رقيقا حين يقول لها :

أما منى نفسى فأنت جميعها   ياليتنى أصبحت بعض مناك

فيكشف لها عن عاطفته ونشوته بحبه ، وإنه ليستحق - إذن - عطفها ، فإن لم تعطف فهو واقع في غي الهوى ، متردد في مهاويه . وكل ذلك مما يلذ المحبوبة أن تسمعه من محبها ، ويمس خوالجها ، ويسبح بها في عوالم المتعة والرؤى .

٢ — وعندما مدح الشاعر أميره لم تكن نشوته من ولاية صديقه أقل من نشوته بالحب ، فأضفى على خلائق الأمير الحياة التى تنقلها عن الروض « أضحكه الغمام الباكى » ، ومدحه بما هو أهله ، وأعلى من سياسته إذ أوقعها على الدهر ، وكنى عن أهليته للملك ، حين جارى فيه أباه ، ودرب عليه أبناءه فكانوا شمس الملك وقمره ونجومه ، بهم يهتدى ، وإليهم يتطلع .

وترتفع نغمة النشوة لدى الشاعر حين يخاطب الدنيا بالبشرى ، ويجعل من أميره فتى الدنيا وواحدها ؛ لأن جد قرطبة فى ذاك الحين كان أعظم الأمجاد فى هذه البلاد ، ويضفى عليه - من خلال التشبيهات والكنايات - نعوتا عالية ، فهو سيد سرى يفتقد عند عظائم الأمور ، ونافذ يحسم الأمر مثل الصمصام ، وحليم ذو سكينة ووقار يشبه فى ذلك "الطود الساكن" ، وذو مضاء

وتصميم يمضى إلى غاياته لا يلوى على شىء كالجواد الأصيل أهل للسباق، وذو حكمة وتجربة ورأى ودهاء، تشتفى به الأمور، كما تشتفى الإبل من جذل الحكاك، وهو طلق سمح باش، يجود عن طبيعة فيه، ولا يزيده الملام فى ذلك إلا زيادة سماح، وهو حاذق ماهر فى البيان والأدب، وأنت تطلع من بيانه وأدبه على بلاغة منظومة تشبه نظام لآلىء الفضة فى الأسلاك، سواء أعجلته فرصة الكتابة أم أتيحت له الأناة.

وتخيل الشاعر الزمان منافسا لأميره، فنصب الزمان شخصا يخاطب مساعى الأمير، ويقر لها بكل فضيلة، وينتزع لها من الورد الحى حليته، ومن المسك المتوهج مكانته، ومن الغناء المرجع حلاوته، ثم يضع أولياءه وأعداءه من هذه الفضائل على طرفى نقيض؛ فالأولياء يطيرون بها هزة وأريحية، والأعداء يهفون لها أسفا وكمدا.

٣ — وعندما أراد الشاعر أن يفصح عن رغبته فى نوال الجاه قدم لهذا بإعلان فرحة الحكم بالعهد الجديد، وجعل أميره فى ملكه محور السيادة الأرضية، تدين له سائر الإمارات الأندلسية مثلما تدين الأفلاك للقمر، ويفرح دست العرش به مثلما تفرح العروس بالزواج، وجعله — فى مبالغة تحتمل المقال — متفردا بالنهى والصالحات، فمن قال بغير ذلك فقد أشرك.

ثم صرح الشاعر بطلبه: «الوزارة»، وجعل إجابته إليه مفخرة له فى يومى الزينة والعراك أى فى السلم والحرب. وأحس أن هذا سيجلب عليه، فتخيل الأحداث رانية إليه شزرا وغاضبة، فأحالها على أميره؛ ليؤدبها، ويقف غضباتها، وكيف لا؟ والشاعر قد ضمنه عزم الأمير وخلقه الندى الضحاك.

وأراد الشاعر أن يكشف عن مواهبه، فتصور نفسه مسكا، والمسك

لا يصلح إلا إذا أمين وسحق ، وتصور نفسه شمساً ، والشمس قد يحجبها الدجن ، وتصور نفسه سيفا صارما قد يمنعه جفنه من أن يعمل . وعلى الأمير إذن أن يبلوه ويختبره ، ليثبت صلاحه .

٤ — وأخيرا يجرد من صحة أميره شخصاً ، يهنئه بالسلامة . ويدعو للأخطار أن تحيا به من بعد هلاك فقد أتاها من ينتشلها ، ويضمن لها الحياة .

الجمال الفني :

١ — بدأ الشاعر قصيدته بالغزل ، على طريقة قدامى الشعراء العرب ، وكان هؤلاء يبدءون قصائدهم بالغزل ، ليستدعوا — كما يقول « ابن قتيبة » (١) — الإصغاء إليهم ، وليمهدوا النفوس لاستقبال ما ينشد من المديح ، وليرهفوا الاحساس ؛ وذلك مما يوجب على الممدوح حق الرجاء ، وحرمة التأميل ، ويبعث على السماح .

وقد يكون « ابن زيدون » نظر إلى هذه المعاني وهو يقدم غزله بين يدي مديحه ، ولكننا نرجح أن فرحته بالعودة إلى (قرطبة) التي فارقها من قبل فارا من السجن قد غمرته ؛ وملأت عليه عواطفه ، وله فيها محبوبة وصديق . والمحبوبة « ولادة » ملهمة غزله ، ورفيقة صباه وشبابه ، وها هو ذا اليوم عائد إليها ظافراً غانما ، فيرد إليه اعتباره . والصديق « أبو الوليد بن جهور » رفيق أنسه من قبل ، وصاحب الفضل في فرار الشاعر من السجن ، وفي حريته ، وهو الذي دعاه إلى (قرطبة) . فليأخذ كل من المحبوبة والصديق قسطه من الشعر ، وليكن الغزل أولا ؛ لأنه لم يعهد إلا هكذا في بدء القصيد ، ثم ليكن المديح تاليا ؛ لأنه لم يعهد إلا هكذا بعد الغزل .

---

(١) الشعر والشعراء ١/٧٥ طبعة المعارف بمصر سنة ١٩٦٦ .

سوى أن كثيرا من الشعراء كانوا ينتقلون من الغزل وأشباهه إلى المديح بتحيل يسمونه فى (البديع) : « حسن التخلص » كقول « أبى نواس » فى مدح « الخصيب » :

تقول التى من بيتها خف محملى : عزيز علينا أن نراك تسير
أما دون مصر للغنى متطلب ! بلى . إن أسباب الغنى لكثير !
فقلت لها ـ واستعجلتها بوادر جرت ، فجرى فى إثرهن عبير :
دعينى أكثر حاسديك برحلة إلى بلد ، فيه الخصيب أمير

أما « ابن زيدون » فما نراه فى هذه القصيدة تحيل ولا أحسن التخلص.

ونعود إلى قراءة البيتين الثانى عشر والثالث عشر .

ولئن تجنبت الرشاد بغدرة لم يهو بى فى الغى غير هواك
الجهورى أبى الوليد خلائق كالروض ، أضحكه الغمام الباكى

فلا نجد صلة بين البيتين وأولهما ـ كما تعلم ـ نهاية الغزل وآخرهما بداءة المديح ، مما قد يحمل على القول بأن فرحة الشاعر ثنائية ، ولم تختلط عنده فرحته بمحبوبته وفرحته بصديقه الأمير .

٢ — هل جاء مديح الشاعر خالصا لأجل المديح ؟

للإجابة عن هذا السؤال نتذكر ما أوردناه فى ترجمة الشاعر من أن أباه كان ثريا وقد أورثه مالا كثيرا ، وأن الشاعر تعرض لخصومات عدة ، وأنه أودع سجن « أبى الحزم بن جهور » والد الممدوح ، وأن الممدوح ـ وهو ولى العهد ـ أعانه على الفرار من السجن ، وأن الشاعر غادر (قرطبة) مكرها مضطرا ، وها هو ذا يعود إليها ظافرا منتصرا ، ولكنه قلق ، حائر بين تحقيق المنى التى ينشدها بعودته إلى دست الوزارة ، والوهم أن يكون الزمان غير صديقه ، ومن هنا كان لا بد للشاعر من أن

يصرح بسؤاله، ويكشف عن رغبية نفسه، ويطالب المنصب. طلبه وهو يعزى الأمير الجديد عن أبيه الراحل(١):

فصدق ظنونا لى، وفىّ، فإننى ... لأهل اليد البيضاء، منك ولا فخر
ومن يك للدنيا وللوفر سعيه ... فتقريبك الدنيا وإقبالك الوفر

ولكنه — فى الحق — لم يكن ينشد المال، فهو عنه فى غنى، وإنما كان يطلب الجاه، وذلك حيث يقول:

قلدنى الرأى الجميل؛ فإنه ... حسبى لبوسى: زينة، وعراك

فمديح الشاعر إذن لم يكن خالصا المدح، وإن بدت فيه مسحة الإخلاص والوفاء للأمير الجديد.

٣ — تسللت الطبيعة إلى الشعر، فرأيناها نسيما معتلا رقيقا يصور تشاكى المحبين الرقيق، وروضا تدب فيه الحياة وقد أضحكه الغمام الباكى، يصور خلائق الممدوح، وشمسا وبدرا ونجوما وكواكب تصور رءوس هذه الأسرة الحاكمة، وورودا سامره الندى فى بجناه، وسكانوما متعطرا، وغناء مرجعا، تتطامن أمام فضائل الممدوح، وقمرا ذا سناء وسنا تعنو له الأفلاك يصور منزلة الأمير العالية بين منازل الملوك، وشمسا منيرة يحجبها الغيم تصور موهبة الشاعر التى لما تستخرج.

٤ — استغل الشاعر التشخيص كعنصر تصويرى يسعفه على نقل تجربته وعواطفه، ففى مطلع القصيدة جعل سحر العينين خمرا تديرها العينان، فطاب مزاجها ما بين أسنانها لتزداد متعته بها، مثلما يمزج الخمر بالماء شاربوها ليسيغوها ألذ وأهدأ. وفى البيت الثانى جعل الشاعر محبوبته تنافر الكرى، ليومىء إلى ما يلقاه منها من عنت وصد. وفى البيت الثامن

---

(١) انظر قصيدة الرثاء الآتية.

عشر وما بعده نقل البشرى إلى الدنيا وجعل يخاطبها مزجياً إليها حديث النعمة الواقعة والأمل المرجو ، وكذلك حمل إلى مساعى الأمير محاورة الزمان الذى نافس هذه المساعى ، فجاء هو الآخر فى وفد التهنئة معترفا للأمير بالفضل مقرا له بالامتياز والفوق . وأخيرا جعل من صحة أميره شخصا يحاوره ، إلا أن الشاعر أضعف صورته باستعمال « لو » فى البيت قبل الأخير .

٥ ـ فى البيت الثالث والثلاثين :

من قال : إنك لست أوحد فى النهى والصالحات فدان بالإشراك

كلمتان ، أولاهما تتصل بالفكرة ، والأخرى تتصل باللغة .

فظاهر المعنى أن الذى ينفى عن الممدوح انفراده بالعقل والصالحات يكون مشركا ، ونحن ندين لله وحده بالتفرد فى صفات الكمال ، ونعتبر جاحدها مشركا ، وهذا مما يجعل بيت « ابن زيدون » من المبالغات المرذولة ، مثلما اعتبرنا قول « أبى نواس »

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التى لم تخلق

وقول « البحترى » :

ولو ان مشتاقا تكلف فوق ما فى وسعه لسعى إليك المنبر

وقول « المتنبى » :

وأنك رعت الدهر فيها وريبه فإن شك فليحدث بساحتنا خطبا

ويكون ـ إذن ـ « ابن زيدون » قد أنساه داعى المديح حق الله لديه ، كما أنسى هؤلاء الشعراء . ولنا مندوحة من هذا كله فيما قلناه منذ قليل : إن الشاعر يذكر مكانة أميره وفرح الدولة به ؛ لتفرده بالعقل وصالحات الأمور ، ومن يقل بغير ذلك فقد أشرك : أى كفر الحقيقة الماثلة لكل ذى عين . والله أعلم .

وأما ما يتصل بأمر اللغة فى البيت فنى هذه (الفاء) فى جملة (فدان بالإشراك) . يقولون : إن ربط جواب الشرط الماضى بالفاء ــ لغير الدعاء ــ غير جائز ، وعن « البغدادى » ــ فى « خزانة الأدب » ــ أنك تقول : إن أعطيتنى فجزاك الله خيرا ، ولو كان الجواب خبريا لم تدخل عليه الفاء . ومن هنا مال أحد الباحثين (١) إلى تصحيح النظم فقال: ولعل الشطر هو : (والصالحات يدين بالإشراك) .

ونحن لا نميل إلى التشدد. وإن كتب النحو تسعفنا بالقول بجواز زيادة الفاء فى الشعر للضرورة ، كما تحذف لمثلها ، وبالقول : إنها زيدت فى النثر ــ أى فى غير ضرورة ــ كقوله تعالى : « إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين * وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين » (٢) وقوله تعالى « ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار (٣) » . وكذلك يقول بعض النحاة : إن (الفاء) داخلة على (قد) محذوفة أو على اسم هو مبتدأ جملة الجواب ، وجوز شارح (الكافية) اقتران الماضى بالفاء إذا كان مستقبلا معنى وقصد به وعد أو وعيد ؛ لأنه إنما أتى به ماضيا للمبالغة فى تحقق وقوعه .

٦ ــ حظيت هذه القصيدة بإعجاب الشعراء فعارضوها (٤) ، ومن معارضاتها فى العصر الحديث قصيدة « شوقى » المسماة (زحلة) :

شيعت أحلامى بقلب باك ولمحت من طرق الملاح شباكى

وفيها يقول :

يا جارة الوادى طربت وعادنى ما يشبه الأحلام من ذكراك

---

(١) حسن جاد حسن : ابن زيدون ــ ص ٢٢٣.
(٢) سورة يوسف : آية ٢٦و٢٧ .
(٣) سورة النمل آية ٩٠ .
(٤) انظر ديوان ابن زيدون تحقيق كيلانى وخليفه ص١٧٤ .

مثلت فى الذكرى هواك وفى الكرى   والذكريات صدى السنين الحاكى
ولقد مررت على الرياض بربوة   غناء ، كنت حيالها ألقاك
ضحكت إلى وجوهها وعيونها   ووجدت فى أنفاسها رياك
فذهبت فى الأيام أذكر رفرفا   بين الجداول ، والعيون حواك
أذكرت هرولة الصبابة والهوى   ـ لما خطرت ـ يقبلان خطاك
لم أدر ما طيب العناق على الهوى   حتى ترفق ساعدى فطواك
وتأودت أعطاف بانك فى يدى   واحمر ـ من خفريهما ـ خداك
ودخلت فى ليلين : فرعك والدجى ،   ولثمت كالصبح المنور فاك
ووجدت فى كنه الجوانح نشوة   من طيب فيك ومن سلاف لماك
وتعطلت لغة الكلام وخاطبت   عينى فى لغة الهوى عيناك

ويبدو أن الذى أعجب « شوقى » من قصيدة « ابن زيدون » ، إنما هو فقط قالبها الغنائى الراقص .

النص الرابع (*)

يمدح « المعتمد بالله » ويشكره لموقفه

من سعاية الساعين والوشاة

تجاريب الحياة :

١ ـ الدهر إن أملى فصيح أعجمُ ، يُعطى اعتبارى ماجهلتُ ، فأعْلمُ

٢ ـ إن الذى قَدَّرَ الحوادثَ قدْرها ساوى لديه الشُّهْدَ منهـــا العلقم

٣ ـ ولقـــد نظرتُ ، فلا اغتراب يقتضى
كدر المآل ، ولا توقٍّ يَعصـــم

---

١ ـ يقول : إن الدهر فصيح أعجم إن أملى بلسان الأحداث فإنه يعطينى ما أجهله من الاعتبار بهذه الأحداث ، فأصبح عالما ماجهلته من قبل .
ورواية القلائد : « الدهر إن أسأل » .

٢ ـ يقول : إن الذى قدر الحوادث وقاسها بقياسها الصحيح استوى لديه حلو الحياة ومرها .
ورواية القلائد : « وإذا الفتى قدر الحوادث » .

٣ ـ لا الغربة تقتضى الكدر والخوف من المآل ، ولا التوقى والتحفظ يعصم من هذا المآل .
ورواية القلائد : « وإذا نظرت فلا اغترار يقتضى كنه المآل » .

(*) ديوان ابن زيدون : طبعة كيلانى وخليفة ص ١٨٨ — وطبعة محمد سيد كيلانى ص ١٦٢ .

٤ - كم قاعدٍ يحظى ، فتعجبُ حاله ، من جاهدٍ يصلُ الدُّروبَ ، فيُحرَم

٥ - وأرى المساعيَ كالسيوف تبادرتْ

شَــأوَ المضـــاء ، فمُنثنٍ ومصمِّم

٦ - ولكم تَسامى بالرفيع نِصابُه خطَرٌ ، فناصبه الوضيع الألأم

حركة الحقد والوشاية :

٧ - وأشدُّ فاجعة الدواهي : مُحسِنٌ يَسْعى ؛ ليُعلِقَهُ الجـــريمةَ مُجرم

٨ - تَلْقَى الحسودَ أصمَّ عن جَرْسِ الوَفا ،

ولقـــد يُصيخُ إلى الرُّقاة الأرقـــم

---

٤ - الحظوظ لا تساير الجهد ، فكثيراً ما حظى القاعد ، وحرم الجاهد الدءوب . ورواية القلائد :

كم قاعد يحظى تعجل حظه من جاهد يصل الدروب فيحرم .

٥ - المساعى قد توصل الإنسان إلى غايته وقد تقصر عنها ، فهى تشبه السيوف ، تارة تصمم فتقطع ، وتارة تنثنى فلا تجرح .

٦ - نصابه : أصله . خطر : قدر وشرف . ناصبه : عاداه .
المعنى : كثيرا ما يرتفع القدر بإنسان فيتسامى ، ثم يجد له عدوا لئيما يناصبه - من حسد - العداء .

٧ - يقول : أشد الدواهى فاجعة ما يلقاه محسن من مجرم ، يملقه الجريمة ، ويلصق به ما يسىء إليه . ورواية القلائد .

وأشد فاجعة الدواهى محسن يسعى فيعلقه الجريمة مجرم .

٨ - الوفا : الوفاء مقصورا . يصيخ . يستمع . الرقاة : جمع راق=

٩ ـ قل للبغاة المنبضــــين قسيهم : ستَرَوْن من تصميه تلك الأسهمُ

١٠ ـ أمررتمُ ، فرأى نجيَّ عيوبكم شَيْحانُ ، مداولٌ عليها ، ملهم

١١ ـ وتبأتمُ للفسق ظَفْرَ سعايةٍ ، لم يَعْدُكُمْ أن رُدَّ ، وهو مُقَلَّمٌ

١٢ ـ ونبذتم التقوى وراء ظهوركم ، فغدا بغيضكم التقيَّ الأكرم

= وهو الذي ينفث في العقد . الأرقم : ذكر الحيات ، وقيل ثعبان خبيث فيه بياض وسواد .

ورواية القلائد : « أصم عن جرس الرقى » .

والمعنى : تجد الحسود يصم عن سماع صوت الوفاء بينما الأرقم يصيخ بسمعه إلى ما يتلو الراقي : فالحسود إذن شر من الثعبان الفاتك .

٩ – المنبضين قسيهم : الذين ينبضونها أي يحركون أوتارها لترن . والقسي : جمع قوس وفيها قلب مكاني . تصميه : تقتله .

يخاطب البغاة الذين سعوا فيه بالوشاية ، ويهددهم بانقلاب حالهم وضياع سهامهم .

١٠ – نجي عيوبكم : خفيها . شيحان : غيور ، وهو فاعل (رأى) .

ورواية القــلائد :

أمررتم فرأى نجي عيوبكم . شيحان ملوم عليها ملهم .

يقول للبغاة : دبرتم الأمر سرا ، ولكن كشف عيوبكم هذا الغيور (يقصد الأمير الممدوح) الملهم .

١١ ، ١٢ : رواية القلائد : « لم يعدكم إذ رد وهو مقلم » .

يقول في البيتين : تجمعتم للسعاية ، فطرحتم التقوى ، فانقلب الأمر : فأصبح التقي الكريم هو بغيضكم (أي الشاعر) .

عظمة الممدوح :

١٣ ـ ما كان حِلْم « محمد » ليُحيله عن عهده دَغَلُ الضمير مُذمَّمُ
١٤ ـ ملك تطلَّعَ للنواظر غُرَّةً زهراء ، يُبديها الزمانُ الأدهم
١٥ ـ يَغشَى النواظرَ من جَهِيرِ رُوائه خَلْقٌ ، يُرَى ملء الصدور ، مطهَّم
١٦ ـ وسَنًا جبين ، يستطير شُعاعُهُ، يُغنى عن القمرين مَنْ يتوسَّم
١٧ ـ صَلْت، تودُّ الشمسُ لو صِيغت له
تاجا ، تُرصِّعُ جانبيه الأنجم
١٨ ـ فَضَحتْ محاسنه الرياضَ ، بَكَى الحيا
وهَنا عليها ، فاغتدت تتبسَّم

---

١٣ — محمد : هو المعتمد الممدوح .

دغل الضمير : أى فى ضميره حقد مكتتم .

يقول : لم يكن حلم الأمير محمد ليغيره ويحوله ذو ضمير حقود

١٤ — يقول : إن الممدوح ملك عظيم الشأن ، ويشبهه بين الملوك بالغرة فى جسد الحصان .

١٥ ، ١٦ ، ١٧ - جهير روائه : روائه الجهير أى حسنه الواضح . خلق مطهم : أى تام .

يستطير شعاعه : ينتشر . القمران : القمر والشمس ، وفى التثنية تغليب .

صلت : واضح بارز مستو ، وهو صفة للجبين فى البيت السابق .

وفى الأبيات الثلاثة يصف ممدوحه بالحسن ، وتمام الخلقة ، ووضاءة الوجه ، واستواء الجبين ، حتى لتود الشمس أن تصاغ له تاجاً يرصع بالنجوم .

١٨ — وهو ذو محاسن تمنت الرياض مثلها فساء نزول الحيا ، ولم تلبث أن نالت أمنيتها .

١٩ - بالقَدْرِ يَبْعُدُ ، والتواضـــمِ يدْنى ،
والبِشْرِ يشمسُ ، والنـــدى يغيمُ

٢٠ - جذلانُ فى يومِ الوغى ، مُتَطلِّقٌ وجها إليــه ، والردى متجهمٌ

٢١ - بأسٌ كما صال الهِزَبْرُ إزاءه ، جودٌ كما جاش الخِضَمُّ الخِضْرِمِ

٢٢ - نفسى فداؤك ، أيها الملك الذى كل الملوك له العـــلا ء تسلِّم

٢٣ - سُدْتَ الجميع ؛ فليس منهم منكر
أنْ صِرتَ فذَّهمُ ، الذى لا يُتْــأَم

---

١٩ — يقول : أميره علا قدره وإن قربه من الناس تواضعه ، وإنه ليتبدى ضحوكا حين يجود على الناس .

٢٠ — يقول : هذا الممدوح شجاع ، يواجه الحرب متطلقاً جذلان ، هاشا باشا ، ولا يبالى جهامة الردى وكآبته .

٢١ — الهزبر : الأسد . الخضـــم (هنا) : البحر . الخضرم : الواسع والمعطاء .

ويقول : إن لممدوحه من البأس مثل ما للأسد ، ومن الجود والكرم مثل ما للبحر الأعظم .

٢٢ ، ٢٣ - يقدم الشاعر نفسه فداء لمليكه وينعته بالفوق على سائر الملوك ، الملوك تسلم له العلاء والشرف . وتسلم له راية السيادة ، غير منكرين أن يكون هو فيهم الفذ الفريد الذى لا يتأم فلا يكونُ له نظير فيهم .

٢٤ـ لا غَرْوَ . أمُّ المجد – فى بكرِ الحجا

من أن يضـــاف إليه صِنْوٌ – أعقمُ

٢٥ ـ * ما إن لهم كخصـــالك الزُّهْر ، التى

منهــــا على زُهر الكواكب ميسمُ

٢٦ ـ * المحتدُ الراكى الثرى ، والسؤدد السـ

امى الذوائبِ ، والفخـــارُ الأعظمُ

---

٢٤ – عقم المجد أن يجعل له نظيرا وصنوا . لجعله بكرا الأم المجد ووسمه بالحجا والعقل ، وجعل هذه الأم أعقم من أن تلد ولدا آخر يكون له صنوا . كما قيل : « وأم الصقر مقلات نزور » .

وفى رواية « من أن يضاف إليك صنو » فالمعنى أن أم المجد أعقم من أن تلد مثلك فى صفاتك .

٢٥ – هذا البيت من جملة الأبيات الخمسة عشر (الموسومة بهذه العلامة *) التى أسقطت من ديوان ابن زيدون تحقيق كامل كيلانى وعبد الرحمن خليفة . ووضع مكانها اثنا عشر بيتا ليست من هذه القصيدة وإنما هى مدسوسة عليها وعلى الشاعر . (أنظر ص ٢٥ من هذا الكتاب) .

يقول الشاعر فى هذا البيت : إن الملوك الآخرين ليست لهم خصال عظيمة واضحة مثلك .

٢٦ – المحتد : الأصل .

يقول : ممدوحه ذو أصل زكى عريق ، ومجد مشرف ، وفخار عظيم .

٢٧ ـ * والحِلْم تَرَسَّخُ هضْبُهُ ، والعلم يَزْ
خـــر بحره ، ولظى الذكاء تضرَّمُ

٢٨ ـ * دع ذكر «صخر» و «ابن صخر» بعده .
أنت الحليم ، وغـــيرك المتحلـــم

٢٩ ـ * لك عَفْوُ شهم لا يضيع حَزامةً ،
ولئن بَطَشْت فبطش من لا يَظـــلم

٣٠ ـ * إن الكمالَ شرحْتَ معنى لفظه ،
والكان وهو المُشكل المستبهـــم

---

٢٧ — يصفه بالحـــلم الراسخ رسوخ الهضاب ، وبالعلم الزاخر ، وبالذكاء المتوقد .

٢٨ — المتحلم : متكلف الحلم · يعلى الشاعر من شأن حلم أميره فلا يدانيه فيه صخر أبو سفيان بن حرب ولا ابنه معاوية وهما ممن يضرب بهم المثل فى الحلم ، ويدعى الشاعر أن ممدوحه هو الحليم وما بدا من غيره حلما فليس كذلك على الحقيقة وإنما هو تحلم ·

٢٩ — وهو شهم حازم فى عفوه ، فإذا بطش فبطاش جبـار ، ولكنه لا يظلم ·

٣٠ — وقد وصل إلى درجة من الكمال شرحها بفعاله ، فأبان عن الكمال وأوضح .

٣١ — * اللهُ قد أرضاه منك: تَحرُّجٌ ثَقِفٌ ، وعَقْدٌ في التُّقَى مستحكِمُ
٣٢ — * لِمَا اعتمدتَ عليه كان بنصره — دأباً — مؤيِّدَك ، الذى لا يُسلِم

أنعم غامرة :

٣٣ — * أنَّى أؤدى فرض أنعُمك ، التى وَبَلَتْ ، كما وَبَلَ السحابُ المُثْجِم
٣٤ — * أمطيتَنى مَتْنَ السِّماكِ ، برُتبةٍ علياء ، مَنْكِبُ عِزِّها لا يُزْحَم

---

٣١ — تحرج : تورع وهو فاعل (أرضاه) · ثقف : مستو ، والتحرج الثقف : التورع المبنى على التفكر .

يقول : أظهر الأمير تحرجا فى أموره ، ووفاء لعقوده ؛ فأرضى الله بهذين الأمرين : الورع والوفاء ·

٣٢ — ولذا أيده الله بنصره ولم يسلمه ولم يخذله .

٣٣ — وبل السحاب : أمطر · السحاب المثجم : المسرع مطره إلى السقوط ·

يقول إن أنعم الأمير غمرته وجاءته مسرعة ، وبعجب كيف يؤدى واجب هذه الأنعم وحق شكرها ·

٣٤ — متن السماك : ظهره ، وفى الديوان « ثبج السماك » وهو وسطه والسماك (وزان كتاب) : فى الأصل ما يسمك به الشىء أى يرفع ونجم فى السماء ، ويطلق على كل ذى رفعة .

يذكر الشاعر نعمة أميره عليه ؛ أعلى شأنه ، ورفع رتبته ، فلا يزحمه مزاحم ·

٣٥ - * وتركتَ حُسّادي عليك ، وكلُّهم
شاكٍ حشاً يذوى ، وأنفٌ يُرْغَمُ

٣٦ - * نَصَحَ العِدا ، في زعمهم ، فوقتهم ،
والغشُّ في بعض النصائح مُدْغَمُ

٣٧ - * وثناهُمُ ثَبْتٌ ، قناةُ أناتِهِ خَلْقَاء ، يَصْلُبُ مَتْنُها ، إذ يُعْجَمُ

٣٨ - * وزهاهُمُ نَظْمُ الهُراء ، فكفَّهم
نظمٌ ، عقودُ السحر منه تُنظَم

---

٣٥ — يذوى : يذبل · ورواية الديوان : « يدوى » بمعنى يمرض ·
يخاطب ممدوحه : تركت حسادى ذابلين - أو مرضى - بسبب صدودك
عنهم ، أذلاء ، مراغمة أنوفهم ·

٣٦ — وقتهم : قهرتهم ورددتهم ردا منكرا ·

يذكر أن الأعداء جاءوا ناصحين فى زعمهم فردهم الأمير أقبح رد ، لأنه
اطلع على الغش الذى أدغموه فى نصحهم .

٣٧ — قناة : رمح · الأناة : الحلم والصبر · خلقاء : ملساء وزنا ومعنى.
يعجم (بالبناء للمفعول) : يعض اختبارا له .

يقول : ردهم الأمير ، وكأنهم كانوا يعجمون قناته ، فبانت لهم صلابتها
على ملاستها ·

٣٨ — يشير إلى أنهم اتخذوا النظم أداة للدس مزهوين به وهو هراء ،
فردهم الأمير بنظم ساحر بديع كشف مخازيهم (انظر ص ٢٧ من هذا
الكتاب) .

٣٩ ـ * أشرعتَ منه إلى الغواة أسـنةً ،
نَفَذَتْ . وقد ينبـو الطريرُ الأَهْذَمُ

٤٠ ـ فِرَق عوت ، فزأرت زأرة زاجر ،
راع الـكُلَيْبَ بهـا السبنتى الضيغم

٤١ ـ ياليت شعرى ؛ هل يعود سفيههم ،
أم قد حـاه النُّبحَ ذاك الأكمم !!

---

٣٩ — ينبو الطرير الأهذم : يرتد فلا يصيب . والطرير من الأسنة المحدد ، والأهذم القاطع .

يقول : إن الأمير أشرع من نظمه إلى الغواة مثل الأسنة النافذة .

وإلى هنا تنتهى الأبيات الخمسة عشر التى أسقطت من ديوان ابن زيدون .

٤٠ — الكليب : مصغر الكلب . السبنتى والضيغم : من أسماء الأسد وكلاهما يدل على الجرأة .

يقول : إن مسعى هؤلاء البغاة كان مسعى هزيلا ، هو أشبه بعواء الكلاب الصغيرة أفزعها صوت الأسد الجرىء .

٤١ — الأكمم : من الكعم . يقال : كعم بعيره أى شد على فيه حبلا أو نحوه ليمنعه من العض أو الأكل . ومن المجاز : كعمه الخوف أى جعله لا ينبس بكلمة .

يتساءل : هل يعودون إلى سفاهتهم أم أن ما لقوه من الأمير يكعمهم ، ويمنع عودتهم إلى السفاهة .

هديل الثناء :

٤٢ ـ لى منكَ — فليذُبِ الحسودُ تلظّيا —

لُطفُ المكانة ، والمحلُّ الأكرمُ

٤٣ ـ وشفوفُ حظٍ ، ليس يفتأ يُجتلَى غضّ الشباب . وكل حظ يَهرَم

٤٤ ـ لم تُلفَ صافيَتى لديك مُضاعةً ، كلا ، ولا خَفِى اصطناعى الأقدم

٤٥ ـ بل أوسعتْ حفظا وصدقَ رعايةٍ

ذِمَمٌ ، موثقةُ العُرا ، لا تُفصَم

٤٦ ـ فليخرقَنَّ الأرضَ شكرٌ مُنجِدٌ ،

مِنِّى ، تناقلُه المحافلُ ، مُتهِم

---

٤٢ و ٤٣ — يذكر الشاعر ما لأميره عليه من أياد ونعم : لطف المكانة ، والمكان الأرفع ، والحظ الشفوف الشاب .

٤٤ — الصافية : الميل ، وصافية الرجل خاصته الذين يميلون إليه ويغشون مجالسه . اصطناعى : من اصطنع بمعنى ربى .

يذكر لأميره يدا حاضرة ويدا سالفت . فالأمير لم يضيع ميله الحاضر إليه بددا ، كما حفظ له سابق اصطناعه إياه .

٤٥ — يقول : بل كانت له من أميره ذمة أوسعته حفظا ورعاية .

٤٦ — ولذا يرجو الشاعر ملحا أن يؤدى حق الشكر ، وأن يملأ المحافل مديحه وأن ينجد ثناؤه ويتهم أى يشيع وينتشر .

٤٧ ـ عطرٌ ، هو المسكُ السَّطوعُ ، يطيب في
شمِّ العقولِ أريجُهُ المتنسِّمُ

٤٨ ـ وإذا غصونُ المكرمات تهدّلتْ
كان الثناء هديلَها المترنم

٤٩ ـ الفخر ثغرٌ ، عن حفاظِك باسمٌ ،
والمجدُ بُرْدٌ ، مِن وفائك مُعْلَم

٥٠ ـ فاسلم مدى الدنيا ، فأنت جمالها، وتَسَوَّغِ النعمى ؛ فإنك مُنعِم

---

٤٧ — المسك السطوع : الذكى الواضح الرائحة . أريجه : تَوهج رائحته .

يقول : وهو شكر عطر ترتاح إليه النفوس كما تستروح المسك الذكى .

٤٨ — تهدلت : تدلت واسترخت . هديلها : غناؤها .

يقول : وهو ثناء يترنم به في مقابل المكرمات التى أسبغها أميره عليه .

٤٩ — الحفاظ : المحاماة والدفاع .

يصف ممدوحه بالحمية وبالوفاء . وقد نال من ورائهما الفخر والمجد .

٥٠ — ويدعو له بالسلامة والتنعم ، فإنه مستحق لهما .

تحليل و نقد

المجال الفكرى :

١ — افتتح الشاعر قصيدته بالحكمة ، حكمة الحياة ، المستمدة من تجاربها ، فالدهر الأعجم يفصح لأبنائه عن علم ما جهلوا ، حتى لقد يستقيم

- فى نظر من يقدر الأحداث ويقيسها بمقياسها الصحيح - حلو الحياة ومرها، والعاقل من لا يبالى، فلا يظن أن الغربة وأمثالها مخوفة، ولا التوقى أو التحفظ عاصم وواق من الأكدار؛ فإن الحظوظ لا تماشى الجهود، وكم قاعد كسول يحظى وينال، وكم جاهد مواصل يحرم ولا يعطى، ولنأخذ العظة من السيف؛ ليس حتما أن يقطع ويجرح، فهو تارة يقطع، وتارة ينثنى ولا يجرح، ولنأخذ العظة أيضا من واقع الناس؛ فكثيرا ما يتسامى بالمرء نصابه وقدره، ثم لا يلبث أن يبغى عليه حسود لئيم، فيناصبه العداوة.

٢ — وانتقل إلى حركة الوشاية وسعى الوشاة فيه لدى أميره، فوسم مسعاهم بالجرم، وعدهم مجرمين حسدة بغاة لا يعرفون الوفاء؛ ولذلك توعدهم بسوء المنقلب، وأن يصابوا بسهامهم هم، وقد كانوا دبروا أمرهم بليل، وأمروه، وصنعوا له، وتحيلوا، ولكن الأمير الغيور الملهم رد كيدهم، وقلم أظفارهم، وكشف لؤمهم وعدم تقواهم، من حيث استأثر الشاعر بالكرم والتقوى؛ لأنه لم يكن على شاكلتهم.

٣ — إن الأمير الذى وقف هذا الموقف يستحق أن يدل بمكانته الشاعر، ويعطيه قسطه من الثناء، فهذا الأمير حليم، فار حلمه، لم يستطع حقد الحاقدين أن يحوله عن الوفاء لشاعره ووزيره، وهذا الأمير مليك عظيم الشأن، كامل السمت، تام الخلقة، وضىء الوجه، وسيم، مكتمل المحاسن، رفيع القدر، لكنه قريب من الناس بتواضعه، جواد عن سماحة، شجاع، يواجه الحروب والأحداث طلقا باشا، قوى، سخى.

ولذا استحق من الشاعر أن يقدم نفسه فداء له، وينعته بالفوق على سائر الملوك؛ لأنه سيدهم غير مدافع. والمتفرد بالفضل من دونهم، أفرده: عقله، وخصاله، وأصله الزكى، وسؤدده العالى، ونجاره الأعظم، وحلمه، وذكاؤه الوقاد، وشهامته، وحزمه، وبطشه، وعدله، وبذلك

حاز الكمال ، ودلت عليه فعاله ، فأرى الناس كيف يكون هذا الكمال حقيقة .

ومما رفع شأن الأمير أنه أرضى الله ـ سبحانه وتعالى ـ بورعه ، الذى جعله يتحرج فى الأمور ، فلا يتعجل الحكم فيها ، وبوفائه حين ينفذ العقود ، ولهذا نصره الله وأيده ، ولم يسلمه ولم يخذله .

٤ — ومن هذه المكارم والمحامد تطل أنعم الأمير على شاعره ، فقد جاد عليه الأمير بالجاه الذى هو فيه ، ورفعه إلى مرتبة الوزارة ، وأدناه من مقامه ، فأرغم بهذا أنوف حساده ، ثم جاءوا واهمين أنهم ينصحون الأمير ، فوقهم هذا ، وخيب ظنهم ، وأظهر غشهم ، وسفه شعرهم الذى كانوا نحلوه الشاعر ، وأراهم منه صلابة فى الحق ، ردت سفاهتهم ، وكممتهم .

٥ — استقرت أنعم الأمير ، واستوى الشاعر على مكانته ، وحظه الشفوف الشاب ، وأصبح من خاصة الأمير ، تذكر جهوده (أى الشاعر) فى خدمة الدولة ، وبحاط بالحفظ ، والرعاية ، مما يوجب عليه أن يشكر أميره ، ويملأ به المحافل ، ويسير شعره فيه ، وينشر ذكره عطرا ، ويتغنى بأمجاده ، ويثنى عليه بما هو أهل له ، وكيف لا يكون أهلا لكل أولئك وقد حامى عن شاعره ودافع ، ووفى له بالغيب !

وليسلم الأمير ، ولينعم بالحياة ... !

<u>المجال التصويرى :</u>

جارى التصوير فى هذه القصيدة أغراض الشاعر :

١ — ففى مطالع القصيدة أملت عليه تجربته المؤلمة التى تعرض لها أن ينطق الدهر الأعجم بحكمة الحياة ، حتى يعلم الآن ما لم يكن يعلم من قبل ، ولعله استرجع أحداث دهره مذ كان صبيا ناعما فى « قرطبة » ، فرأى سواء

حلو الحياة ومرها ، وأصبح لا يبالى مآل سعيه ، ولا التحوط فى أمره ، ولا يهمه أثمر الجهد أم لم يثمر ، فالحظ غير مرتهن بجهد ، وإلا فما تفسير رزق القاعدين وحرمان الكادحين . . ! .

وقدم لفلسفته تلك دليلا من عمل السيوف ، تضرب لتقطع ، فتارة تصمم فتبلغ شأوها ، وتارة تنثنى فترتد غير قاطعة ، ودليلا آخر من عداوة اللؤماء الوضعاء لذوى القدر والخطر .

٢ — وفى تصويره لحركة الوشاية قابل بين ذى القدر المحسن وصاحب الجرم الحاقد الحسود ، وجعل هذا يصم أذنيه عن سماع صوت الوفاء ، فى الوقت الذى تصيخ فيه الأراقم إلى الرقاة ، فقد بلغ الجرم بالإنسان مبلغا لا تبلغه الثعابين الناهشة ، التى خلقت لتنفث السم وإشاعة الخراب .

ثم يتهدد هؤلاء الوشاة البغاة ، وهو يصورهم محاربين بالقسى والأسهم ، ويشتفى منهم ، وهو يرد قسيهم وسهامهم فى نحورهم ، ويصور سعايتهم ظاهرا — على التشبيه أو على الاستعارة — فهو يقلمه ، ويصورهم يطرحون التقوى وينبذونها ، كما تطرح النواة وتنبذ ، ومن هنا باءوا بالخزى ، وبقيت التقوى لأهلها .

٣ — وعند ما صور الشاعر مكارم ممدوحه وفضائله ، جرى الشاعر فى أودية البيان وأخذ منها ما يتكافأ مع عاطفته نحوه ، فذكر — فى صور متتابعة متزاحمة — ممدوحه حاليا ، لا يحيله عن عهده الحاقد ، ملكا أغر يتصور غرته على زمان أدهم ، تام الخلق ، فهو يملأ صدور ناظريه إعجابا به ، متسع الجبين مشرقه ، فهو من أبناء السراة ، ينظر الناس إلى وسامته ، ويحملون الشمس والقمر ، مستوى الجبين ، وتود الشمس لو صيغت له تاجا ، ترصع

جانبيه الأنجم ، تغطى محاسنه على محاسن الرياض ، بعيد المكانة ، دانى المكان بتواضعه ، شجاع ، لا يرى فى المعارك إلا باشا ؛ ثقة بنصره ، ذو بأس يكافىء بأس الأسد ، وجود يكافىء البحر المحيط .

ثم يذكر تسليم الملوك له بالعلاء ، لا ينكرون عليه تفرده من دونهم . ويتصوره عاقلا عقم المجد أن يجعل له نظيرا وصنوا ، فجعله بكرا لأم المجد ، وجعل هذه الأم أعقم من أن تنجل أخا له ، ولذلك اجتمع له من الخصال المشرقة إشراق الكواكب ما لم يكن لسائر الملوك : أصل نام فى ثرى المجد ، وسؤدد مرتفع فى ذؤاباته ، وفخار أعظم ، وحلم راسخ رسوخ الهضاب ، وعلم زاخر ، وذكاء متضرم .

والممدوح يفوق فى حلمه « صخرا » وابنه ، فهو المستحق وحده لوصف (الحليم) وغيره (المتحلم) . والممدوح يعفو عن شهامة وحزامة ، ويبطش عن عدل وقدرة ، والممدوح قدم الدليل العملى على كمال الطباع والسجايا ، فكأنه شرح للناس معناه ، بعد أن كان مشكلا مستبهما فى أفهامهم ، والممدوح ورع ، يتحرج فى خطاه ، ويفكر فى نتائجها ، قبل أن يحكم ، ووفى تقى ، يستمسك بما أحكم من عقود .

٤ — وعند تصوير أنعم الممدوح على شاعره استبعد هذا قدرته على الوفاء بحقها ، فهى كالمطر الوابل المنجم ، والمطر يحيى موات الأرض دون أن ينتظر مثوبة ، وقد جعله « المعتمد بالله » فى أعلى منصب بعده ، فهو فيه لا يزحم منكب عزه ، وانتهى الأمر إلى انطواء حساده على أحشاء مرضى وأنوف مراغمة ، كناية عما أصابهم من الغيظ والكمد . ثم جاء الحساد غاشين فى ثوب الناصحين ، فوجدوا من الممدوح حلما ، تصوره الشاعر رحا أخاق أملس صلبا ، وجاءوا بنظم هراء ، قابله

« المعتمد بالله » بنظم « عقود السحر منه تنظم » ، وواجههم بجرأة تشبه جرأة الأسد الضيغم ، راعت عواءهم الذى أشبه عواء فرق الكلاب ، فكعمتهم تلك الجرأة ، وكمت أفواههم عن استئناف السفاهة .

٥ — وعدد الشاعر — فى إطار التشفى من الحساد الذين أراد لهم أن يذوبوا تلظيا — أنعم الممدوح عليه ، وجعل حظه منه شفوفا غض الشباب ، فشخصه انا . وذكر له يدا حاضرة ويدا سالفت ، ووصف ذمته بالحفظ وصدق الرعاية والوثاقة .

لهذا وجب على الشاعر أن يسير شكره ، فهو يؤكد مسيره فى الأرض مخرقا جوابا ، تتناقله المحافل ، منجدا متهما كما كان شعراء الجزيرة العربية يقولون ، عطرا يشبه المسك السطوع ، غناء يشبه الهديل المطرب .

ولقد حامى « المعتمد بالله » عن شاعره ، ووفى له ، فالفخر تغر باسم عن هذا الحفاظ ، والمجد برد معلم من هذا الوفاء ، والممدوح جمال الدنيافليسلم ، والمنعم بالنعمى فليتسوغها ، أى فليتم به أمرها ، أو : فليأخذها كما يأخذ الشراب السائغ .

المجال الفنى :

١ — الظاهرة الأولى بدء القصيدة بالحكمة ، وهى حكمة منتزعة من تجاريب الحياة ، متصلة بنفس الشاعر وعواطفه وسوابق أمره ، وقد أملتها الأحداث المتتالية التى هزت الشاعر وأقضته ، وجرتها المكيدة الجديدة التى كادت تعصف به ، لولا وقوف « المعتمد بالله » إلى جواره ، فليس المكان للغزل ، ولا لغيره من فنون الطرب .

٢ — جاءت نقلة الشاعر إلى المدح رائعة ، فحققت التخلص الحسن الذى افتقدناه فى القصيدة السابقة . اقرأ الأبيات حتى البيت الرابع عشر

تجد أغراض الشاعر متشابكة فى تداخل وتمازج ، فقد حدثنا أولا حديث حكيم مجرب عن قياس الحوادث والعبرة منها ، وانتقل من حيث لا نكاد نحس إلى حساده ، الذين أجرموا فى حقه ، وصموا عن جرس الوفاء ، واشتفى منهم وهو يصف ما لقوا من إعراض ممدوحه ، وما لقى هو من وفائه ؛ فإنه :

ما كان حلم « محمد » ليحيله عن عهده دغل الضمير مذمم

ملك تطلع . . . .

٣ — لم يفلت الشاعر مكرمة ، فقد نسب إلى ممدوحه مكارم الدنيا كلها . وهنا نرى أن حركة الشاعر كانت قوية وممتدة فى أعماق نفسه . فقد أنقذه « المعتمد بالله » من شرك نصب له ، والشاعر يعلم أكثر من غيره أنه لولا مروءة « المعتمد بالله » وحلمه ، ويقظته وحزمه لوقع فى الشرك. ولقد كان على الشاعر أن يستحضر تجربتين سبقتا ، أولاهما أودت به إلى سجن « أبى الحزم بن جهور » ، ودفعته إلى استعطاف هذا والتطامن له، فما أفاد الاستعطاف وما أجدى التطامن ، ولم ينقذه منه أو من السجن إلا الفرار والهرب ، والتجربة الثانية « مع أبى الوليد بن جهور » قدر الشاعر خطرها عليه ، فذادها عنه ، ولكنه ظل خائفاً حذاراً ، إلى أن أتيحت له سفارة لدى أمير « مالقة » ، فانتهزها ليفر ببدنه . وهذه هى التجربة الثالثة ، كان من المتوقع ألا ينجو منها ، فيقع فى الذل والمهانة ويمرض الاضطهاد والقهر ، وإذا كان « المعتمد بالله » قد أنجاه منها ، فليس هذا لأن ثقته فيه مطلقة ، فإن مساعى الحسدة نجحت فيما بعد ، وأرسله « المعتمد بالله » فى صحبة ابنه « سراج الدولة » وجيشه لتأديب أهل « إشبيلية » والرجل (أى ابن زيدون) مريض قد أشفى على الهلاك .

كانت منة الممدوح على شاعره عظيمة القدر ، فليفرغ الشاعر إذن جعبة المكارم ، وليخلعها على « المعتمد بالله » كفاء ما قدم من معروف وأسدى من صنيع .

٤ ـ ما تزال الطبيعة تتسلل إلى الشاعر ، ليبثها عاطفته وهو يصورها ويلونها ، وسنترك لك هذه المرة التعرف على هذه الصور والألوان ، فى الأبيات :

١٦ – ١٧ – ١٨ – ١٩ – ٢٥ – ٢٦ – ٢٣ – ٣٤ – ٤٧ – ٤٨ .

٥ ـ أخذ الشاعر عدة معان أودعها قصيدته ، ومن ذلك قوله :

لا غرو · أم المجد فى بكر الحجا ـ من أن يضاف إليه صنو ـ أعقم

فهو من المثل العربى القديم : « أم الصقر مقلات نزوز » ، ولكن « ابن زيدون » تصرف فيه تصرفا أكسبه معنى جميلا ، حين وصف ممدوحه بالحجا والعقل ، وجعله بكرا فى حجر أم المجد ، وهذه عقمت أن تنجل مثله .

وقول « ابن زيدون » :

جذلان فى يوم الوغى متطلق وجها إليه ، والردى متجهم

من قول « المتنبى » :

وقفت ، وما فى الموت شك لواقف كأنك فى جفن الردى ، وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

فكلاهما يصور ممدوحه فى ساحة الحرب شجاعا باسماً مشرقا ، لثقته من النصر على عدوه .

وقد فاز « ابن زيدون » بالايجاز ، وبتصوير الردى متجهما ، ومع ذلك يقابله ممدوحه بالطلاقة ، بينما فاز « المتنبى » بتصوير حركة الأبطال كلمى مهزومين ، وعدم مبالاة ممدوحه للردى لأنه لا اعتبار له عنده .

وقول « ابن زيدون » :

بالقدر يبعد ، والتواضع يدنى والبشر يشمس ، والندى يتغيم

من قول « البحترى » :

دنوت تواضعا وعلوت مجداً ؛ فشأناك انخفاض وارتفاع
كذاك الشمس تبعد أن تسامى ويدنو الضوء منها والشعاع

فكلا الشاعرين فى أول شطر وصف ممدوحه بالعلو والدنو ، علو المكانة ، ودنو المكان بالتواضع ، وزاد « ابن زيدون » وصفا آخر فى بقية بيته ، بينما ساق « البحترى » بقية شعره مساق التشبيه ، فذكر الشمس تبعد مكانا ويدنو ضوؤها وشعاعها ، فدل بهذا على إمكان المشبه ، بعد أن كان فى الوصف بالعلو والدنو معا مظنة التناقض .

النص الخامس(*)
يمدح «أبا الوليد بن جهور» ويرثى أباه
«أبا الحزم بن جهور»

الدهر يسيء ويحسن :

١ - × ألم تر أن الشمس قد ضمها القبرُ ، وأن قد كفانا فقدنا القمرَ البــــدرُ

٢ - وأن الحيا ، إن كان أقلع صوبُه ، فقد فاض للآمال فى إثْره البحر

٣ - إساءةُ دهر ، أحسن الفعلَ بعدها. وذنبَ زمان ، جاء يتبعه العذر

هذه الرموز × و + و ( ) سنحتاج إليها قليل عند دراسة حركة الإبداع الفنى

١ و ٢ - الشمس والقمر : المقصود بهما أبو الحزم بن جهور الأمير الراحل. البدر : المقصود به أبو الوليد بن جهور أميره الجديد.

الحيا : المطر . صوبه : نزول مطره ،

يقول فى البيتين : لقد مات «أبو الحزم» وضمه القبر وقد كفانا البدر الأمير «أبو الوليد بن جهور». وإذا كان الحيا قد أقلع عن الإمطار فقد وضعنا أملنا فى البحر الذى ما زال فياضا بأسباب الحياة .

٣ - يقول : أساء الدهر فى الأولى وأذنب الزمان فيها ، ولكن تلا الاساءة إحسان بهذا الأمير الجديد الذى جاء به الزمان اعتذارا من ذنبه السالف .

(*) ديوان ابن زيدون بتحقيق كيلانى وخليفة ص ١٥٠ وبتحقيق محمد سيد كيلانى ص ٣٦ .

٤ ـ فلا يَتَهَنّ الكاشحون ، فما دجا لنا الليل إلا ريثما طلع الفجرُ

٥ ـ وإن يك ولّى « جهور » فـ « محمد »
خليفته العدل الرضا وابنه البَرّ

٦ ـ لعمرى لنعم العِلْق ، أتلفه الردى فبان ، ونعم العلق ، أخلفه الدهر

الفتى الماجد :

٧ ـ همام ، جرى يتلو أباه ، كما جرى « معاوية » يتلو الذى سنه « صخر »

٨ ـ هززنا به الصمصام ، فالعزم حده ، وحليته العليا ، وإفرنده البشر

---

٤ ـ الكاشحون : الأعداء . دجا الليل : أظلم .

يدعو الأعداء ألا يهنئوا بما سمعوا من الناعى ، فقد أقبل الفجر أو الأمير الجديد من بعد ليل إقبال الحياة .

٥ ـ ولى الأمير فجاء خليفته محمد المعتمد بالله بالعدل والرضا والبر .

٦ ـ العلق : النفيس ، وابن زيدون مغرم بهذا الوصف بان : انفصل وفارق .

المعنى : كلا الأميرين علق نفيس : هذا الذى ولى وفارق ، وهذا الذى أخلفه الدهر بعده .

٧ ـ هذا البيت زيادة فى الذخيرة .

يصف به أبا الوليد بأنه همام تلا أباه كما تلا معاوية صخرا .

٨ ـ به : الباء للتجريد . الصمصام : السيف . إفرنده : وشيه وزينته .

المعنى : وجدنا فى أبى الوليد عزما ماضيا يحليه البشر .

٩ ـ فتى يجمع المجدَ المفرَّقَ همُّه ، ويُنظَم فى أخلاقه السؤددُ النَّثْرُ

١٠ ـ + أهابت إليه بالقلوب محبةٌ ، هى السحر للأهواء ، بل دونها السحر

١١ ـ + سَرَت حيث لاتسرى من الأنفس المنى ،
ودبت دبيبـــا ليس يحســـنه الخمْرُ

١٢ ـ + لبسنا لديه الأمْنَ تَنْدَى ظلالُه ،
وزهـــرةَ عيش مثل ما أينـــع الزهر

١٣ ـ + وعادت لنا عاداتُ دنيا ، كأنهـــا
بهـــا وَسَنٌ ، أو هز أعطافَهـــا سُكْرُ

١٤ ـ () مليـــك ، له منا النصيحةُ ، والهوى ،
ومنـــه الأيادى البيض ، والنِّعـــم الخُضْر

١٥ ـ نُسِرُّ وفاءً ، حين نُعلن طاعةً ، فما خانه سرٌّ ، ولا رابه جَهْرُ

---

٩ - وهو فتى ماجد همام وذو سؤدد ، يستحق المديح نظما ونثرا .

١٠ و ١١ - تجمعت القلوب حوله ، جمعها الحب الذى سحر أهواء الناس وخواطرهم ودبت المحبة فى أنفسهم كما تدب الخمر فى أعضاء شاربها

١٢ - وفى كنفه الأمن الوارف الظلال ، والعيش اليانع .

١٣ - وسن : نعاس . أعطافها : جوانبها واحدتها عطف بالكسر.

يقول : وجدنا منه عادات عودنا إياها ، فهى تعود إلينا طائعة .

١٤ - يقول : نمنح مليكنا النصيحة والحب مقابل ما يعطى من النعم .

١٥ - ويقول : نعلن طاعته عن وفاء حقيق نسره ، فظاهرنا وباطننا معه .

١٦ _ () فقل للحيارى : قد بدا عَلَمُ الهدى
وللطامع المغـــــرور : قد قضى الأمرُ

القلوب الذائبة :

١٧ _ أبا الحزم ، قد ذابت عليك من الأسى
قلوبٌ ، مناها الصبرُ ، لو ساعد الصـــــبر

١٨ _ () دع الدهر يفجع بالذخائر أهله، فما لنفيس مذ طواك الردى قَدْر

١٩ _ () تهون الرزايا بعدُ ، وهي جليلة ،
ويُعرف مذ فارقتنـــــا الحادث النُّكر

٢٠ _ فقدناك فقدان السحابة ، لم يزل لها أثر ، يُثْني به السهل والوعر

---

١٦ - يدعو الحيارى المترددين فى طاعته أن يستسلموا ، والطامعين فى الإمارة أن يسلموا علم الطاعة ، فقد أعلن اسم الأمير وقضى الأمر .

١٧ - رواية الذخيرة : «قلوب ومنها الصبر» .

يعود إلى الأمير الراحل فيذكر أن القلوب ذابت أسى عليه ، وأنها تتمنى عنه الصبر الذى لا يسعف .

١٨ - رواية الذخيرة : «فما لنفيس إذ طواك الردى قدر» .

يقول : لجعنا فيك - أبا الحزم - فأصبح يهون علينا أن نفجع بكل نفيس وغال .

١٩ - وهذا صنيع الزمان يهون من أمر الرزايا المقبلة مهما جلت وعظمت .

٢٠ - لقد كنت أيها الراحل ذا جدوى لنا ، فقدناك مثلما تفقد الأرض السحابة التى تبث الحياة فى السهل والوعر .

٢١ ـ مساعيكَ حَلْيٌ لليالى مُرَصَّع ، وذِكرُكَ فى أردان أيامها عِطْرُ

٢٢ ـ () فلا تَبْعَدَنْ . إنَّ المنية غايةٌ ، إليها التناهى ، طال أو قَصُر العمر

عزاء . . !

٢٣ ـ () عزاءً . فدتك النفس عنه ، فإن ثوى
فإنك لا الوانى ، ولا الضَّرَعُ الغَمْرُ

٢٤ ـ () وما الرُّزْء فى أن يودَعَ التربَ هالكٌ !
بل الرزء كلُّ الرزء أن يهلك الأجـــرُ !

---

٢١ ـ أردان : أكمام جمع ردن (بالكسر) . ورواية الذخيرة : « مساعيك حلى للزمان » .

يقول : كنت تسعى فينا سعيا حاليا وتركت فينا ذكرا عاطرا .

٢٢ ـ ويدعوه ألا يبعد ؛ فكل لاحق به ، والمنية واقعة لا محالة ، طال العمر أم قصر .

٢٣ ـ ثوى : أقام . الوانى : المتعب . الضرع : الضعيف . الغمر : الذى لم يجرب الأمور .

يخاطب الشاعر أميره الجديد ؛ يعزيه ، ويقدم نفسه فداء عن الراحل ، ويقول له : إن أطال الراحل الإقامة فى مقامه فما نعتقد إلا أنك تواجه الحدث بجرأة وقوة فما جربنا عليك ونى ولا ضعفا ، ولا عرفناك غمرا قليل التجاريب .

٢٤ ـ الرزء : المصيبة .

يقول له : ليس الرزء فى موت من يموت ، بل الرزء فى الأجر الذى يضيعه الجزع . فهو يدعوه إلى الصبر ليحصل على أجره .

٢٥ – () أمامك من حفظ الإله طليعةٌ ،
وحـــولك من آلائه عسكرٌ مَجْرُ

٢٦ – + وما بك من فقر إلى نصر ناصر .
كفقـــك من الله الكلاءة ، والنصر

ظنون صادقة :

٢٧ – + لك الخيرُ . إنى واثقٌ بك ، شاكرٌ
نُثنَى أياديك ، التى كُفرُها الكفر

٢٨ – + تَحَامَى العدا – لما اعتلقتُـك – جانبى ،
وقال المنـــاوى : شب عن طوقه عمرو

---

٢٥ – آلائه : نعمه واحدها إلى . عسكر مجر : جيش عظيم .
ويذكره بنعم الله عليه ، فهو ملك عظيم تحميه هذه النعم كما يحمى الجيش العظيم البلاد .

٢٦ – الكلاءة : الرعاية والحفظ .
يقول : أنت فى غنى عن نصرة العباد ، بعد أن تكفل بك نصر الله .

٢٧ – يدعو له بالخير ، ويعلن ثقته به وشكره لأياديه ، ونعمه المتكررة ، التى يعتبر كفرانها وجحودها شركا .

٢٨ – تحامى العدا جانبى : اجتنب الأعداء جانبى وابتعدوا عنى . اعتلقتك : تعلقت بك وأحببتك .

المناوى : المناوىء مسهلة وهو المعادى والعدو . شب عن طوقه عمرو : عمرو هو عمرو بن عدى ، وشب عن طوقه أى كبر عن طاقته ووسعه .=

٢٩ - + بلين كلامٌ ، كان يَخْشُن منهم ، ويفْتُرُ نحــوى ذلك النظر الشــــزرُ

٣٠ - فصدِّق ظنونا لى ، وفوِّ بإننى لَأَهْلٌ اليد البيضاء منك . ولافَخْرا

٣١ - ومَن يك للدنيا وللوَفْر سعيُهُ فتقريبكَ الدنيا ، وإقبالكَ الوفر

= وأصل العبارة (شب عمرو عن الطوق) وهو مثل يضرب لمن تبدو عليه مخايل الرجولية ، وأصله أن عمرا هذا نظفته أمه ، وألبسته لباس الملوك ، وطوقته بطوق فى عنقه ، وأرسلته فى زيارة خاله جذيمة الأبرش فلما رآه قال : (شب عمرو عن الطوق) ، فأرسل مثلا .

يقول الشاعر : لما أحببتك وتعلقت بك ابتعد عنى الأعداء ، وحسدونى على مكانتى لديك .

٢٩ - يفتر : يضعف . النظر الشزر : النظر بمؤخر العين ولا يكون إلا فى حال الغضب .

يقول : لقد لان كلامهم معى من بعد خشونة ، وانكسر نظرهم إلى من بعد شزر ، لأنهم يحسبون لمكانى منك حسابا .

٣٠ - يطلب إلى أميره أن يوليه يداً بيضاء ، فهو أهل لها ، ويرجو أن يكون عند حسن ظنه .

٣١ - الوفر: المال الكثير . يقول . من يسع إلى الدنيا وإلى الوفر والغنى يبلغ أمله إذا ضمن تقريبك إياه وإقبالك عليه .

المجال الفكرى :

١ - بدأ الشاعر قصيدته رثاء ومديح معا، فيقول ، لقد مات «أبو الحزم ابن جهور» وضمه القبر ، فرمناه ، وتولى الأمر من بعده ابنه «أبو الوليد» فكفانا، ووضعنا فيه أملنا ، فإذا كان الحيا - رمز الأمير الراحل - قد أقلع عن إمطاره ، فإنا وضعنا فى البحر - رمز الأمير الجديد - أملنا ، وإذا كان الدهر قد أساء ذنبا حين نعى إلينا الأب فقد أحسن إلينا بالأمير الجديد الذى جاء به الزمان اعتذاراً من ذنبه ، وأقبل علينا إقبال الفجر والحياة من بعد ليل طويل ، فجاء بالعدل والرضا ، والبر ؛ وخاف فى هذا كله أباه ، فكان نعم خلف لخير سلف .

٢ - ومن هذه النقطة ولى الشاعر وجهه إلى الأمير الجديد ، فوصفه هماما ، ذامضاء ، وعزمة ، ماجدا ، سريا ، شريفاً ، تجمعت حوله قلوب الناس محبة ، ومد هو عليهم من أمنه ، وأنعمه ، فله منا النصيحة ، والحب ، والوفاء ، والطاعة ، والولاء ، وعلى المترددين أن يسلموا له بالإمارة ، فقد استقر له أمرها ، وقضى شأنها .

٣ - وعاد إلى الأمير الراحل برثيه ، ويذكر ذوبان القلوب أسى لوفاته، وافتقادها للصبر عند فقده ، والفجيعة فيه بما يهون - من بعده - الفجيعة فى كل غال ونفيس وجليل ، ومع ذلك ما تزال آثاره ناطقة عنه كما تنطق الأرض بحديث الامتنان للحيا . ويفخر الزمان بمساعيه ، ويذكر سيرته العطرة ، فهو بهذه المساعى وتلك السيرة قريب غير بعيد ، فإذا بعد بجسمه، فلا يحزن ؛ لأن الناس جميعا منتهون إلى الموت ، طال العمر بهم أم قصر .

٤ -- وانتقل الشاعر إلى أميره الجديد فخاطبه بالعزاء ، وقدم نفسه فدا، عن الراحل ، وشد على يد الابن أن يواجه الموقف صلبا قويا مجربا ، صبوراً صبر المؤمنين ، فلا يضيع أجر هذا الصبر ، وليحفظه الله ، فلا يلتمس من غيره نصراً ، فما به حاجة إلى نصر العباد ، وقد كفاه الله بكلاءته ونصره.

٥ — ثم دعا الشاعر لـ « أبي الوليد بن جهور » بالخير ، وأكد ثقته به ، وشكره لنعمه وأياديه المتتالية عليه ، التي يعد كفرانها كفراً ، وذكر الشاعر أن الأعداء تحاموه فلان كلامهم زلفى ، وغضوا أبصارهم من بعد عداوة كانوا يظهرونها . وطلب أن يصدق الأمير له وفيه الظنون ، فيوليه يداً بيضاء ، وينعم عليه بالوزارة ، فهي كفيلة له بالجد المأمول ، ونجاح مسعاه وإقبال الدنيا عليه .

المجال التصويري :

نرجو ألا نتجنى على الشاعر إذا اعتبرناه في هذه القصيدة منافقاً اجتماعياً كبيراً ، فهو من أول أمره لا يريد أن يرثي « أبا الحزم » أو يعدد محاسنه أو يأسف لفراقه ، أو يعتبر بموته ، وإنما جاء يجامل صديقه ويواسيه ، وفي نفسه من الفرحة له ، والغبطة بولايته ، ما يصده عن أبيه ، الذي كان — من عهد غير بعيد — سجانه ، والذي أعرض عنه ، وما بالى باستعطافه ، أو اعتذاره ، وما أعطاه حريته التقاضى المكفولة لأمثاله ، ومن أجل هذه المجاملة والمواساة نافق الشاعر .

ومن أول بيت أودع مرثيه القبر وهو يتخلى عنه ، فقد جاد الزمان بمن يخلفه وتصلح به شئون العباد ، فما حاجتهم إذن إلى من رحل ؟ ! وعن طريق المقابلة في هذا البيت والأبيات التالية كشف الشاعر عن عاطفته نحو الميت الراحل والحي الباقي . فإن كان الراحل حياً أفلح صوابه وانتهت مهمته ، فالباقي بحر يفيض الآمال ويقدر على صنع حيا متجدد ، وإن كان الدهر قد أساء وأذنب حين أوفد رسوله الموت إلى الراحل فقد أحسن الدهر واعتذر من ذنبه حين جاد بالباقي ، والإحسان خير من الإساءة ، والاعتذار حلو وجميل .

وقد ولى عهد الراحل كما يولى الليل يرتقب فجره ، وجاء عهد الباقي مع الفجر يلد الحياة والنور ويودع الموت والظلام ، وولى « جهور : أبو الحزم »

وخلفه « محمد : أبو الوليد » فجاء بالعدل والرضا والبر ، ولنا أن نتصور أن الشاعر يغمز الراحل بأضداد العدل والرضا والبر من طرف خفى ، وإن كان ظاهر بيانه لا يسعف بهذا .

ثم استأثر « أبو الوليد » باهتمام الشاعر ، فجعله هماما يجرى فى طاق أبيه ماضيا مضاء الصمصام ، « فتى يجمع المجد المفرق همه » ، ويستحق المديح العظيم ، واستقرت له فى القلوب محبة ، لم يجد خيرا من أن يصفها بالسحر ، فهى قارة الانفكاك لها ، سارية فى النفوس مسرى المنى ، متملكة منها كما تتملك الخمر من شاربها .

ثم لم يستطع الشاعر أن ينافق ذا « هو » ، فكشف عن طويته ، وصور لنا الأمن الذى فاء الأمير الجديد به عليه ، وهو أمن افتقده لدى أبيه ، والعيش الغريض المزهر ، وهو عيش حرمه فى سجن أبيه ، والعادات التى عادت متحاوهبات ، من بعد ما كان قد حرمها زمانا . ثم يقرر الشاعر أن هواه ونصيحته للمليك الجديد ، ويشعره أنه مخلص فى ولائه له ، يمانق ظاهره فى هذا الولاء باطنه ، فهو يعلن الطاعة له صادقا فى إعلانها صدقا لا ريب فيه ، ويسر الوفاء له أمينا على إسراره أمانة لا تخون ، وكأنه بهذا يدفع عن ذاته مظنة الشك فى ولائه للممدوح ، وأن يتهم لديه بمثل ما اتهم به لدى أبيه من قلة الإخلاص أو عدمه .

وفى البيت السادس عشر يدلى الشاعر برأى سياسى حين يدعو الحيارى والمترددين فى إعلان ولائهم الأمير الجديد إلى مبايعته ، فهو « علم الهدى » وهذا وصف يحمل معانى استحقاقه الإمارة من طريق الدين والاتصال بالله — سبحانه وتعالى — كما يفت الشاعر فى أعضاد المنازعين الطامعين ويصرفهم عن عداواتهم وأطماعهم فقد « قضى الأمر » ، واستتب النظام الجديد .

ويتذكر الشاعر أنه نسى الميت ، فيتوجه إليه ، يرثيه ، ويذيب من الأسى عليه قلوبا ، تعلقت بالصبر ، ويذكر ضآلة الأقدار من بعده ، وهوان الرزايا إثر فقده ، ويذكر ما أخلفه من أثر حسن شبهه بأثر الحيا فى الأرض ،

ومساع شبهها بالحلى تزدان به الليالى ، وسيرة شبهها بالعطر تتعطر به الأيام.
ثم يدعو له ـ وقد بعد بعداً لن يئوب منه ـ ألا يبعد ، وهو يقرر أن المنية غاية كل حى وهو فى هذا كأنما يشتق لنفسه ، وإن ارتدى ثوب الواعظ المذكر .

وإثر هذا لبس مسوح المعزين ، فقدم نفسه فداء الميت الراحل ، ومانظنه صادقاً فى عرضه ، وإنما هو كلام مجاملة ، وحديث مواساة ، استمر يتلوه على مسمع الصديق ، وهو يدعوه إلى الصبر ، تؤهله له صلابته ؛ فما جربنا عليه ونى ولا ضعفا ، وتزكيه الرغبة فى أجر هذا الصبر ؛ فالمصيبة فى إضاعة هذا الأجر ، وليست المصيبة فى موت من مات وإيداع الهالك التراب ، وتقيمه على هذا الصبر مكانته الروحية التى استمدها من حفظ الله ونصره وكلاءته . وقد مات الميت فليحى الحى .

وهنا نسى الشاعر ـ أو تناسى ـ الميت والحى كليهما ، وواجب الرثاء والتعزية ، ودواعى الأسى والتأسية ، والأسف والتأسف ، والتفجع والتسلية ، وذكر إنساناً واحداً ، هو شخصه ، له عند الأمير الجديد مطالب ، وكم للأمير عليه من أياد ونعم ، كفرها هو الكفر ، ونكرانها هو الجحود والشرك . ويدور الشاعر حول ذاته فيرى الأعداء يتحامون جانبه ، ويحسدون مكانته ، ثم يلاينونه عندما قربه الأمير منه ، ويغير كل نظرته الشزراء إليه ، ثم يسقط فى أعماق ذاته ، فيتحمها ، وينشىء ظناً صادقاً له فى صديقه ، وظناً صادقاً لصديقه فيه ، يجتمعان عند بغية نفسه وطلبتها : الوزارة ؛ فإنه يظفر منها بالجاه وبالوفر .

المجال الفنى :

١ ـ أول ما يطالعنا هو هذا المدح المعتنق الرثاء أو الرثاء المعتنق المديح ، وهو ـ فى حد ذاته ـ مطلب وعر ، لا يقدر عليه إلا ذو قدرة بيانية ، ويذكرنا بقصيدة « أبى تمام » التى يمدح فيها الخليفة « الواثق » ويرثى « المعتصم » ، ومطلعها(١) :

---

(١) ديوان أبى تمام بشرح الخطيب التبريزى — تحقيق محمد عبده عزام — المجلد الثالث — ص ٢٠٣ نشر دار المعارف بمصر [١٩٥١] .

ما للدموع تروم كل مرام والجفن ثاكل هجعة ومنام

وفيها يقول :

لله . أى حياة انبعثت لنا يوم الخميس ، وبعد أى حمام
أودى بخير إمام اضطربت له شعب الرجال وقام خير إمام
تلك الرزية لارزية مثلها والقسم ليس كسائر الأقسام(١)
إن أصبحت هضبات قدس أصابها
قدرٌ فما زالت هضاب شمام
أو يفتقد ذو النون فى الهيجا فقد
دفع الآله لنا عن الصمصام(٢)
أو جُبَّ مناغاربٌ يوما فقد ، حنا بأتمك ذروة وسنام(٣)
هل غير بؤسى ساعة ألبستها بنداك مالبست من الإنعام
نقض كرجع الطرف قد أبرمته
يابن الخلائف أيما إبرام
ما إن رأى الأقوام شمساقبلها أفلت ، فلم تعقبهم بظلام
أكرم بيومهم الذى ملكتهم
فى صدره ! وبعامهم من عام ! ...الخ

فـ«أبو تمام» استطاع بمقدرته البيانية الفائقة أن يمدح ويرثى فى آن ، وهذا «ابن زيدون» يجرى فى طلقه ، وإن لم يسبقه ؛ لأن «أبا تمام» يعدل بين الخليفتين ، ولئن كان للباقى منهما حق التأميل لقدكان الراحل منهما حق

(١) قسم (بالكسر) النصيب والحظ .
(٢) ذو النون والصمصام كلاهما سيف لعمرو بن معد يكرب الزبيدى .
(٣) جب : استؤصل . الغارب : أعلى الظهر . أتمك ذروة : أعلاها وأشرفها .

الوفاء ، أما ابن زيدون ، فقد كان هواه كله مع الأمير الجديد ، وإن شئت فقل : إنه كان نرجسي الهوى ، ما يبالي إلا نفسه ، ولا يناشد إلا صوالحه .

ولا ننسى في هذا المقام أبيات « ابن نباتة المصري(١) » (٦٨٦ — ٧٦٨ هـ) التي هنأ فيها « الملك الأفضل » صاحب « حماة » ، وعزاه عن والده « الملك المؤيد » :

هناء محا ذاك العزاء المقدما فما عبس المحزون حتى تبسما
ثغور ابتسام في ثغور مدامع شبيهان ، لا يمتاز ذو السبق منهما
تُرَدّ مجاري الدمع والبشر واضح
كوابل غيث في ضحا الشمس قد همى(٢)

وهذا شعر يركب مركبا صعبا ، ولكن رقته تفرض قدره والإعجاب به .

٢ — استند الشاعر في دعوته السياسية للأمير — وإن أتاها من طريق جانبية — على ما يسمونه الحق الالهي ، فهو — في البيت السابع — يتلو أباه بحق الميراث(٣) ، وهو — في البيت السادس عشر — « علم الهدى » اى أنه مرتبط بالدين ذو صلة بالله ، وهو — في البيتين الخامس والعشرين والسادس والعشرين — محفوظ بآلاء الله ونعمه ونصره ، فما به حاجة إلى نصر ناصر ، بعد إذ نصره الله وأيده ، وهو — في البيت السابع والعشرين — مثل محمد [illegible] الإيمان بعطاياه ، فلا تكفر عطاياه وأياديه ، وإنما الثقة بها مطلقة ، ومن يجحد هذا عد كافرا .

ونحيلك [illegible] ما سبق ان ذكرناه(٤) ، تعليقا على هذا البيت وهو في مدح « أبي الوليد [illegible] جهور » أيضا .

---

(١) [illegible] المصري بفتح النون ، وابن نباتة السعدي بضم النون .

(٢) [illegible] غير فصيح والصواب هناءه . ترد (بالبناء المفعول) : تكفكف . همى : سال .

(٣) [illegible] مدحه قال : جارى أباه بعد ما فات المدى : فتلاه بين الفوت والإدراك .

(٤) [illegible] ١١٠ من هذا الكتاب .

من قال : إنك لست أوحد فى النهى
والصالحات — فدان بالإشراك

فالمعنى هنا وهناك متماثل ، وإن كنا هنا يمكن أن نقدر التشبيه البليغ — بحذف الأداة — فكأنه يقول : إنى واثق بك شاكر أنعمك التى كفرها وجحودها كالكفر بالله والجحود بنعمائه .

٣ — فى البيت السابع ما يشعرنا بإعجاب « ابن زيدون » بـ « معاوية » ، ومن بعد مدح « المعتمد بالله » بالحلم ، وقال له(١) :

دع ذكر صخر وابن صخر بعده أنت الحليم وغيرك المتحلم

ويبدو أن دولة بنى أمية فى الأندلس (١٣٨ — ٤٢٨ هـ) كانت مثار إعجابه وقد انقضت وهو فى سن ترنو على الثلاثين ، ولعله عمل فى خدمتها ، ولقد يكفى حبه « لولادة » ، وهى واحدة من بنات هذه العائلة الأموية — فى الإطالة بساستها والإشادة برسومها .

٤ — فى البيت السادس عشر ما يومىء إلى أن « قرطبة » شهدت حركة سياسية مناوئة لبنى جهور إثر وفاة عميدهم « أبى الحزم » ، وهذا شىء لا يستغرب ولا يستبعد فى عهد ملوك الطوائف ، فالأمر لصاحب الغلبة ، وكلهم طامع .

٥ — فى صدر البيت الأول شبه « أبا الحزم » بالشمس ، وفى عجزه شبهه بالقمر وليس فى هذا شىء إلا فضل تصوير ، وشبه « أبا الوليد » بالبدر ، ولما فقد القمر لم يبال فقده ؛ لأن البدر خلفه ، والقمر هو هذا الكوكب الفضى منذ الليلة الثالثة فى الشهر حتى ليلة المحاق (٢) ، والبدر هو القمر ليلة اكتماله وتمامه .

---

(١) انظر ص ١١٩ من هذا الكتاب .

(٢) وفى الليلتين الأوليين يسمى هلالا . وقيل يسمى هلالا أيضاً فى ليلتى ٢٦ ، ٢٧

فالحقيقة تحتم ألا يخالف البدر القمر ، لأن البدر هو القمر فى وضع معين . فهل يجيز التصوير أن يعتبر القمر شيئا يغاير البدر باعتبار أن كليهما ليس نصا فى حقيقته ، وإنما هو رمز لحقيقة أخرى ؟ ! قد يرى ذلك ، وإن كان فى النفس منه شىء . والذى نرتضيه أن الصورة إذا صادمت واقعا محتملا تحملنا لها ، أما إذا صادمت واقعا غير محتمل شجبناها ولم نكترث لها .

ولهذا نقول بتناقض ما بين صورتى القمر والبدر فى بيت الشاعر .

٦ — فى البيت الثامن (تجريد) . وفى البيت السادس عشر (اقتباس) حسن من القرآن الكريم : « قضى الأمر » (١) . وفى البيت الثامن والعشرين (تضمين) المثل المشهور : « شب عمرو عن الطوق » ، وهى مع المقابلة التى شاعت فى القصيدة — تمثل جانبا من صناعة « ابن زيدون » وفنه القولى .

٧ — يقول « ابن زيدون » :

أهابت إليه بالقلوب محبة ... هى السحر للأهواء ، بل دونها السحر
سرت حيث لا تسرى من الأنفس المنى ... ودبت دبيبا ليس يحسنه الخمر

فيصور رفق السريان وخفاء الدبيب ، ويجرى فى تصوير هذا المعنى منذ قال « أسقف نجران » .

منع البقاء تقلب الشمس ... وطلوعها من حيث لا تمسى
تجرى على كبد السماء كما ... يجرى حمام الموت بالنفس

وقال بعض العدويين :

وأشرب قلبى حبها ، ومشى بها ... كمشى حميا الكأس فى عقل شارب

وقال « عمر بن أبى ربيعة » :

لقد دب الهوى لك فى فؤادى ... دبيب دم الحياة إلى العروق

---

(١) سورة يوسف آية ٤١

وقال « مسلم بن الوليد » :

تجرى محبتها فى قلب وامقها جرى السلامة فى أعضاء منتكس

وقال « أبو نواس » :

فتمشت فى مفاصلهم كتمشى البرء فى السقم

وقد امتاز « ابن زيدون » منهم جميعا بهذه المنى التى تهفو بها الأنفس فإنها (١) لا تدب فى عضو ، ولا يجرى بها دم ، وإنما هى أنسام الخواطر وصبوات النفوس .

٨ - كثير من المعانى التى أوردها الشاعر فى قصيدته هذه ردده فى قصائد أخر .

وقد تنبه إلى هذا « ابن بسام » قديما ، وعده تلاعبا (٢) . وقد يقال : إن الشاعر لا ضير عليه فى ذلك ؛ بدعوى أن هذه المعانى تتداعى عند الرثاء ، فهى تفرض نفسها كحقائق ، وإن اختلفت تصاويرها ، وتخالفت تعابيرها . وقد يقال : إن دواعى المجاملة والمواساة تحتم إسراعه إلى العزاء ، ولهذا يجتر معانيه هو . وينقل ألفاظه هو . أليست ملكا له ، فله إذن أن يصرفها كما يشاء . وقد يقال : (٣) . إن إعجابه بقصيدته الأولى حدا به إلى تكرار ما قاله فيها ، والتقيد بألفاظها ومعانيها كلما حاول رثاء مهما .

ولقد ننظر إلى هذه المسألة نظرة أوسع من هذا كله ، فإن لجوء شاعر — أى شاعر — إلى معانيه وألفاظه ، يأخذ منها وينقل عنها ، يرسم لنا

---

(١) من حسن جاد حسن : ابن زيدون . ص ـ ١٩٦

(٢) الذخيرة ـ القسم الأول ـ الجزء الأول . ص ـ ٣٦٩

(٣) شوقى ضيف : ابن زيدون . ص ٨٨ ط ٢

حركة الإبداع الفنى عنده ، التى نتصورها — نظريا — تسير فى الاتجاهات الآتية(١):

(ا) نقل المعانى .

(ب) نقل الألفاظ نقلا حرفيا .

(ح) نقل الألفاظ مع تعديل .

(ء) التقديم والتأخير .

(ه) الحذف .

(و) الإضافة .

وذلك كله مما يدل على أن الشاعر لا ينهى مهمته بإنشاء قصيدته ، فهى ما تزال تراود خواطره ، وتجاذب اهتماماته ، فهو يتعهدها بالرعاية والتنمية ، وقد يجلوها فى أردية جديدة ، أو يرتق أرديتها القديمة . وقد يُشذّبها ويقوم منآدها وينفى عنها الخبيث ، أو يضيف إليها ما تزداد به بيانا عن نفسه ، .. الخ . وننتقل من هذا الجانب النظرى إلى التطبيق .

---

(١) فى كتابنا : قضايا النقد الأدبى — فصل (وحدة القصيد عند دعاة تحرير الأدب) ص ٩٧ وكتابنا : الاتجاهات الفنية فى شعر عبد الرحمن شكرى — فصل (الوحدة الفنية) ص٣٨ أمثلة لحركة الإبداع الفنى لدى « شكرى » و « العقاد » .

حركة الإبداع الفنى

عند « ابن زيدون »

ندرس هذه الحركة فى ثلاث قصائد :

أولاها : قصيدته فى مدح « أبى الوليد بن جهور » ورثاء أبيه ، التى سلفت (ص١٣٣) .

وثانيتها : قصيدته فى مدحه أيضا ورثاء والدته .

وثالثتها: قصيدته فى مدح « المعتمد بالله » ورثاء أبيه « المعتضد بالله » .

وقد نصبنا فى القصيدة الأولى رموزا ، نضعها أيضا فى القصيدتين التاليتين أمام الأبيات ، على الوجه الآتى .

× الاشارة إلى قيام صلة بين البيت فى القصيدة الأولى والثانية .

+ « « « « « « « « « والثالثة .

* « « « « « « « « « الثانية والثالثة .

( ) « « « « « « « القصائد الثلاث .

وهذه هى القصيدة الثانية(١) .

* هو الدهر فاصبر للذى أحدث الدهر فمن شيم الأبرار فى مثلها الصبر(٢)

* ستصبر صبر اليأس أو صبر حسبة فلا ترض بالصبر الذى معه وزر(٣)

---

(١) ديوان ابن زيدون ص ١٧٤ تحقيق كيلانى وخليفة وص٣٨ تحقيق محمد سيد كيلانى

(٢) الأبرار : جمع بر وهو المطيع ، ورواية الذخيرة : « الأحرار » .

(٣) حسبة : أجر . وزر : إثم .

* حذارك من أن يعقب الرزء فتنةً يضيق لها عن مثل أخلاقك العذر

* إذا أسِفَ الثُّكلُ اللبيبَ فشفّه

رأى أبرح الثكلين أن يَحْبَطَ الأجر(١)

() مُصــابُ الذى يأسَى بميْت ثوابِه

هو البَرْح لا الميْت الذى أحرز القبرُ(٢)

* حياةُ الورى نَهجٌ إلى الموت مَهْيَعٌ

لهم فيه إيضــاعٌ كما وُضِع السَّفْر(٣)

* فيا هادى المنهــاج جُرْتَ ، فإنما

هو الفجرُ يهــديك الصراط أو البجر(٤)

لنا فى ســواءٍ عِبْرةٌ غير أننا نُغَرُّ بأطماع الأمانى فنغتر

() إذا الموت أضحى قَصْرَ كل معمَّر فإنّ سواء طال أو قصُرَ العمر

* ألم تر أن الدين ربع ذمارُهُ فلم يُغْنِ أنصار عديدٌ ولا وفر(٥)

---

(١) شفه : أنحله . أبرح الثكلين : أشدهما . يحبط الأجر : يبطل ثوابه.

(٢) البرح : الشدة .

(٣) نهج : طريق . مهيع : بين واضح . إيضاع : إسراع . السفر : المسافرون .

(٤) جرت : ملت عن القصد . البجر : الشر والأمر العظيم والمكروه.

(٥) ذماره : ما يلزمك حفظه وصيانته . وفر : مال كثير .

() بحيث استقل الْمُلكُ ثانى عطفه وجرّ من أذياله العسكر المجر (١)

* هو الضَّيْم لو غَيْرُ القضاء يرومُه شأه المرامُ الصعبُ والمسلكُ الوعر (٢)

* إذا ءوتْ جُرْدُ السوابح فى القنا بليل عَجاج ليس يصدعه فجر (٣)

لقد بكَّرَ الناعى علينا بدعوةٍ عَوانٍ أمضّتنا لها لوعةٌ بكر (٤)

() أأنفسُ نَفْسٍ فى الورى أقصَدَ الردى

وأخطرُ علق للهدى أهلكَ الدهر ؟ (٥)

* هنيئا لبطن الأرض أنسٌ مُجدَّدٌ بثاوية حَلّتْهُ فاستوحش الظَّهر

بطاهرة الأثواب قانتة الضحا مسبِّحة الآناء محرابُها الخدر (٦)

فإن أُنْسِيَتْ فالنفسُ أنأى نفيسة إذ الجسمُ لا يسمو لتذكيره ذكر

---

(١) ثانى عطفه : أى معرضا . المجر : الجيش العظيم .

(٢) شأه . سبقه .

(٣) جرد : جمع أجرد وهو الفرس القصير الشعر الرقيقه والسباق . السوابح : الخيل . القنا : جمع قناة وهى الرمح . عجاج : غبار . يصدعه : يشقه .

(٤) عوان : أى مجربة ، والعوان ضد البكر . لوعة بكر : أى حرقة لم تعرف من قبل .

(٥) أقصد الردى : أصاب والردى فاعله . أخطر : أعظم ، من الخطر وهو القدر والشرف .

(٦) الآناء : جمع إنى وهو الوقت والحين والساعة .

حَصَانٌ إن التقوى استبـــدتْ بسرِّها

فَمِنْ صالح الأعمال يُستوضَحُ الجهر[١]

يطأطأُ سِتْرُ الصَّوْن دون حجابها   فَيُرْفَعُ عن مَثْنَى نوافلها السِّتْر[٢]

* لعمرُ البُرود البيضِ فى ذلك الثرى   لقد أُدرجت أثناءه النِّعَم الخضر[٣]

* عليها ســـلام الله تترى تحيةً   يُنَمِّمُها الغفرانُ ، ريحانُها النضر[٤]

* وعاهد تلك الأرضَ عهـــدُ غمامةٍ

إذا استعبرتْ فى تربها ابتسم الزهر[٥]

×() فديناك إن الرزء كان غمامةً   طلعتَ لنا فيها كما يطلع البدر

() ألست الذى إن ضاق ذَرعٌ بحادث   تبلّجَ منه الوجهُ واتسع الصدر[٦]

() تعزَّ بحـواء التى الخلقُ نسلها   وَمَنْ دونها فى العصر يتبعه العصر

نســـاء النبى المصطفى أمهاتنا   ثوَيْنَ ، فمغناهن مُذْ حقبٍ قفر[٧]

---

(١) حصان : عفيفة

(٢) النوافل : جمع نافلة ، وهى صلاة التطوع .

(٣) أدرجت : هنا بمعنى طويت ، أى دفنت مع الميت .

(٤) تترى : أصلها (وترى) بمعنى متتالية متتابعة .

(٥) استعبرت : بكت .

(٦) ضاق ذرع بحادث : أى لم يطقه ولم يقدر عليه ، تبلج الوجه : اشرق وابتسم .

(٧) المغنى : المنزل . حقب (وزان عنب) : جمع حقبة وهى السنة أو المدة من الدهر لا وقت لها ، وحقب (بضمة أو بضمتين) مفرد بمعنى السنة أو السنوات أو ثمانين عاما أو أكثر ، وجمعها أحقاب وأحقب .

وجازيتها الحسنى فأمٌّ شفيقةٌ ... تحفّى بها ابنٌ كلّ أعماله بر
تمنّتْ وفاة فى حياتك بعدما ... توالتْ كنظم العقد آمالُها النثر
كأن الردى نذرٌ عليها مؤكّدٌ ... فإن أسعفتْ بالحظ فيك وفى النذر
توالتْ فأبقتْ من مُجابِ دعائها ... نفائسَ ذخر مايقاسُ به ذخر
تتمُّ به النُّعمَى وتتّسق المنى ... وتُستدفَع البلوى ويُستقبَل الصبر
* فلا تهض الدنيا جناحَك بعدها ... فمنك لِمَن هاضت نوائبُها جَبْرُ[1]
* ولا زلت موفور المديد بقُرةٍ ... لعينيك مشدود بهم فلك الأَزر[2]
* بنى جهور ، أنتم سماء رياسةٍ ، ... لِعافيكمُ فى أفقها أنجمٌ زهر[3]
* ترى الدهرَ إن يبطِشْ فمنكم يمينه ... وإن تضحكِ الدنيا فأنتم لها ثغر
لَكُمْ كل رقراق السماح كأنه ... حُسامٌ عليه من طلاقته أثْر[4]
* سحائبُ نُعمَى أبرقتْ وتدفقتْ ... فصيبُّها الجَدْوى وبارقُها البِشْر[5]

---

(١) لا تهض الدنيا جناحك : يدعو له بالسلامة وعدم النقصان . وهاض الجناح انتزع منه الريش فأقعد الطائر عن الحركة .

(٢) الأزر : القوة والظهر .

(٣) العافى : الطالب المعروف .

(٤) رقراق : متلألىء . السماح : الكرم والجود . أثر (بالفتح) . وشى وزينة .

(٥) الصيب : المطر النازل . الجدوى : العطية .

* إذا ما ذَكِرتمْ واستُشِمَّتْ خِلالُكم
تضوّعت الأخبارُ واستمجد الخُبر[1]

طريقتكم مثلى ، وهديكمُ رضا ،
ونائلكم غَمْر ، ومذهبكم قَصْر[2]

* وكم سائل بالغيب عنكم أجبته :
هناك الأيادى الشفع ، والسؤدد الوتر

* عطاء ولا منّ ، وحُكم ولا هوًى
وحلم ولا عجز ، وعزّ ولا كِبْر

() قد استوفت النعماء فيكم تمامها
علينا فمنًّا الحمدَ لله والشكر

وهذه هى القصيدة الثالثة ، التى يمدح فيها « المعتمد بالله » و يرثى أباه « المعتضد بالله »[3] .

---

(١) خلالكم : خصالكم . تضوعت الأخبار : انتشرت استمجد الخبر : استكثر ، والخبر (بالضم) : العلم بالشىء .

(٢) نائلكم غمر : أى عطاؤكم كثير .

(٣) ديوان ابن زيدون : تحقيق كيلانى وخليفة ص ١٤٠ وتحقيق محمد سيد كيلانى ص ١٥٢.

* هو الدهر فاصبر للذى أحدث للدهر فمن شيم الأبرار فى مثلها الصبر(١)
* ستصبر صبر اليأس أو صبر حسبة فلا تؤثر الوجه الذى معه الوزر(٢)
* حذارك من أن يعتب الرزء فتنةً يضيق لها عن مثل إيمانك العذر
* إذا أســـن الثــكلُ اللبيبَ فشفّه
رأى أفدح الثــكلين أن يهلك الأجـــر(٣)
() مُصـــابُ الذى يأسى بميْت ثوابه
هو البَرْح ، لا الميت الذى أحرز القبر(٤)
* حياة الورى نهج إلى الموت مهيع لهم فيه إيضاع كما يُوضع السفر
* فيا هادى المنهاج جُرْتَ ، فإنما هو الفجر يهديك الصراط أو البجر
() إذا الموت أضحى قَصْرَ كل معمَّر فإنّ سواء طال أو قصر العمر(٥)
* ألم تر أن الدين ضيـــم ذماره فلم يُغن أنصارٌ عديدهم دَثْر(٦)
() بحيث استقل الملكُ ثانى عطفه وجرّر من أذياله العسكر المجر

---

(١) رواية نفح الطيب : « فمن شيم الأحرار » .
(٢) « « « : « . . أو صبر وحشة .. الذى معه العذر » .
(٣) « « « : « . . أن يذهب الأجر » . وأفدح الثــكلين : أثقلهما .
(٤) رواية نفح الطيب : « مصاب الذى يأس بموت ثوابه . . » .
(٥) قصر كل معمر : أى قصاراه وغايته .
(٦) دثر : كثير .

* هو الضيم ، لو غيرُ القضاء يرومه ثناه أَرَامُ الصعبُ والمسلكُ الوعر
* إذا عثرتْ جُرْدُ المناجيج في القنا بلبل عجاج ليس يصدعه فجر[١]
( ) أأنفسَ نفسٍ في الورى أقصدَ الردى
وأخطر علق للهدى أفقد الدهر
أعبادُ ياخير الملوك ، لقد عدا عليك زمان من سجيته الغدر
فهلا عداه أنَّ عَلْيَاكَ حَلْيُهُ وذِكْرَكَ في أردان أيامه عطر
غُشيتَ فلم تَغْشَ الطِرادَ سوابحٌ
ولا جُرِّدتْ بيضٌ ولا أُشرعتْ سُمْرُ[٢]
ولا ثنت المحذورَ عنك جلالةٌ ولا عَزَّ تَبْتٌ ولا نَالَ غَمْرُ[٣]
* لئن كان بطن الأرض هُيِّئَ أُنسُهُ بأنك ثاويه لقد أوحش الظَّهْر[٤]
* لعمرُ البرودِ البيضِ في ذلك الثرى لقد أدرجت أثناءها الكرمُ الخضر
* عليكَ من الله السلامُ تحيةً ينمّمك الغفرانَ ريحانُها النضر
* وعاهد ذاك اللحدَ عهدُ سحائب إذا استعبرت في تُرْبِه ابتسم الزهر
ففيه عُلاً لا يُسامَى يفاعُه وقَدْرُ شباب ليس يعدله قدر[٥]

---

(١) المناجيج : جياد الخيل والإبل .

(٢) الطراد : يقصد السباق . بيض وسمر : سيوف ورماح .

(٣) رواية نفح الطيب : « . . ولا عدد دثر ولا نائل غمر » .

(٤) رواية الذخيرة : « . . . هيىء أنسه » .

(٥) اليفاع : المرتفع من الأرض ، أو الأرض المستوية .

وأبيضَ فى طىّ الصفيح كأنه صفيحة مأثورٍ طلاقته الأثر(١)
كأن لم تَبِرْ حُمْرُ المنايا تُظلّها إلى مُهَج الأقتال راياته الحمر(٢)
ولم يَحْمِ من أن يُستباح حمَى المدى فلم يرضه إلا أن ارتجم الثغر
ولم ينتجعه المعتفون فأقبلتْ عطايا كما والى شآبيبه القطر(٣)
ولم تستكشفْ آراءه ألمعيـــةٌ كأن نجىّ الغيب فى رأيها جَهْر(٤)
ولم ينشـــذرْ للأمور تحايا إليها، كما جلّى من المَرْقَب الصقر(٥)

كلا لقىَ سلطانه صـــحَّ أمْرُه،

في كرمه (عَضُدٌ) ورواحه (نَصْر)(٦)

إلى أن دعاه يومُه، وأجابه،

وقد قدَّم المعـــروفَ، واستمجد الذخر

---

(١) الصفيح: يقصد به القبر. صفيحة مأثور: جانبه، والمأثور: السيف فى متنه أثر: أى وشى وحلية.

(٢) مهج الأقتال: أنفسهم، والأقتال: المقاتلون أو الأعداء. وفى رواية «الأفيال» جمع فيل وهو الشجاع.

(٣) ينتجعه المعتفون: يذهبون إليه، والمعتفون طلاب المعروف. الشآبيب: جمع شؤبوب، وهو الدفعة من المطر.

(٤) ألمعية: ذكاء.

(٥) لم تشذر للأمور: لم ينشط لها، من (تشذر الرجل) أى نشط للقتال.

(٦) يشير إلى تلقيبه بالمعتضد وبالمنصور.

فأمسى «ثبير» قد تصدى لحمله

سرير، فلم يَبْهَضْهُ من هَضْبِهِ إصر[١]

ألا أيها المولى الوصولُ عبيده ، لقد رابنا أن يتلو الصلةَ الهجر[٢]

تفاديك ، داعينا السلامُ ، كعهدنا ، فما يُسمع الداعى ، ولا يُرفع الستر

أعتبُ علينا ذاد عن ذلك الرضا فنُعتبَ أم بالمسمع المعلى وَقْر ؟[٣]

أما إنه شُغل ، فراغك بعده سينصاتُ ، إلا أن موعده الحشر[٤]

أأنساك لما يَنأ عهدٌ ، ولو نأى

سَجِيسَ الليالى لم يَرِمْ نفسىَ الذكر[٥]

وكيف بنسيان ، وقد ملأتْ يدى جِسامُ أيادٍ منك أيسرُها الوفر

+ لئن كنتُ لم أشكر لك المنن التى

تملّيتها تترى لأوبقنى الكفر[٦]

---

(١) ثبير : اسم لأربعة جبال فى ظاهر مكة . يبهضه : يبهظه وزناً ومعنى ، أى يثقله ويغلبه . إصر (بالكسر) : ذنب وثقل .

(٢) الوصول : مبالغة فى الوصول .

(٣) وقر : ثقل فى السمع . ورواية نفح الطيب : «أعتب علينا ذا وعن ذلك الرضا فنسمع» .

(٤) ينصات : يقبل ويجيب .

(٥) سجيس الليالى : أى متغيرا متكدرا . لم يرم : لم يفارق ، من رام يريم بمعنى فارق .

(٦) تترى : متتابعة . أو بقنى الكفر : أهلكنى .

فهل عَلِمَ الشلوُ المقدَّسُ أننى مُسوَّغُ حالٍ ضلّ فى كنهها الفكر [1]

وأن متابى لم يُضمه « محمد » خليفتك العَدْل الرضا وابنك البر [2]

+ هو الظافر الأعلى المؤيَّد بالذى له فى الذى ولاّه من صُنْعه سرُّ

+ رأى فى اختصاصى ما رأيتَ ، وزادنى

مزية زُلْفَى ، من نتائجها الفخر

+ وأرغم فى برّى أنوفَ عصابة ، لقاؤهمُ جهْمٌ ، ولحظهم شَزْرُ [3]

+ إذا ما استوى فى الدست عاقدَ حبوةٍ

وقام سِماطا حَفْله فلى الصدر [4]

+ وفى نفسه العلياء لى مُتبَوَّأٌ ينافسنى فيه السماكان والنسر [5]

+ يطيل العدا فىّ التناجىَ خُفيةً ،

يقولون : لا تَستَفْتِ ، قد قضى الأمر

---

(١) الشلو : العضو . كنهها : حقيقتها .

(٢) رواية الذخيرة : وأن متابى لم يضمه محمد . . ، والمتات : صلة القربى أو الصحبة .

(٣) جهم : غليظ سمج . شزر : أى نظر غاضب .

(٤) استوى فى الدست : أى جلس فى مجلس الحكم ، والدست معرب (دشت) عن الفارسية وأصلها بمعنى اليد والصحراء وصدر البيت . عاقد حبوة : أى جالساً فى صورة المحتبى . سماطا حفله يقصد الجلوس عن يمين وشمال ، كل صف منهما سماط .

(٥) السماكان : نجمان نيران فى السماء يسميان الأعزل والرامح .

+ مضى نَفْثُهم فى عُقدة الدين ضَلَّةً فَعاد عليهم غُمَّةً ذلك السحر(١)

+ يَشِبُّ مكانى عن توقى مكانِهم
كما شب قبل اليوم عن طوقه عمرو(٢)

• لك الخير . إن الرزء كان غيابةً طلعتَ لنا فيها كما يطلع البدر

() فقرّتْ عيونٌ كان أسخنها البكا
وقرّتْ قلوب كان زلزلها الذعر

() ولولاك أعيا رَأْبُنا ذلك الثأى وعزّ فلمّا ينتعش ذلك العَثْر(٣)

ولّما قَدَمْتَ الجيش بالأمس أشرقت
إليك من الآمال آفاقُها الغُبر(٤)

فقضّيْتَ من فرض الصلاة لُبانةً، مُشيِّعُها نُسْكٌ، وفارطها طهر(٥)

---

(١) النفث : حركة الفم كالنفخ وأقل من التفل . والنفث فى العقد : حركة السحرة والحسدة. غمة : كربة .

(٢) شب عن طوقه عمرو : من المثل « شب عمرو عن الطوق » ، وقد شرحناه فى (ص١٣٨)

(٣) الرأب : الإصلاح . وما أحسن صنع المغاربة ، يسمون مكان إصلاح السيارات (مرأب السيارات) . الثأى (بفتحتين) : الفساد .

(٤) قدمت الجيش : أى تقدمته ومررت فى مقدمته .

(٥) لبانة : حاجة فى النفس . مشيعها نسك : أى تاليها نسك وهو صلاة العيد . فارطها طهر : أى تقدم عليها التطهر والتطييب . ورواية نفح الطيب : « فشيعها نسك وقارنها طهر » .

ومِن قبلُ ما قدَّمْتَ مثنى نوافل، يلاقى بها مَنْ صام من عَوَزٍ فطرُ

ورحت إلى القصر ، الذى غضّ طرفَه
بمُيَدَ القصامى ، أن غدا غيرَه القصر

فداما معاً ، فى خير دهر، صروفه حرامٌ عليها أن يَطورَها هَجْر (١)

() وأجْلَ عن الثاوى العزاء ! فإن ثوى
فإنك لا الوانى ، ولا الضَّرَعُ الغَمْر (٢)

وما أعطت السبعون قبلُ أولى الحجا
من الإرْب ما أعطتك عشروك والعشر (٣)

* ألست الذى إن ضاق ذرع بحادث تبلّج منه الوجه ، واتسع الصدر

* فلا تهض الدنيا جناحَكَ بعده ، فمنك لمن هاضت نوائبُها جَبْر

* ولا زلت موفور العديد ، بقُرة لعينيك ، مشدوداً بهم ذلك الأزر

* فإنك شمس، فى سماء رياسة ، تطلعُ منهم حولها أنجمٌ زُهر

---

(١) يطورها : يقربهما . أو يحوم حولها .

(٢) الثاوى : المقيم ويقصد الميت أقام فى قبره . الوانى : المتعب . الضرع : الضعيف . الغمر : الذى لا تجربة له . ورواية الديوان : « . فإنك لا الفانى . . . » .

(٣) أولى الحجا : أصحاب العقل . الإرب (بكسر فسكون) : الدهاء والعقل والبصيرة . ورواية نفح الطيب : « من اللب » . عشروك والعشر : أى ثلاثون سنة ، وهى عمر المعتمد بالله فى ذلك الوقت .

+ شككنا فلم نثبت : أأيام دهرنا
بها وَسَنٌ ، أم هز أعطافها سُكْر (١)
+ وما إن تنشقنا مغازلة الكرى ، وما إن تمشت فى مفاصلها خمر (٢)
+ سوى نَشَوات من سجايا مملك ، يُصدِّقُ فى عليائها الخَبَرَ الخُبْر
* أرى الدهر إن يبطش فأنت يمينه ، وإن تضحك الدنيا فأنت لها ثغر
* وكم سائل بالغيب عنك أجبته :
هناك الأيادى الشفع ، والسؤدد الوتر
هناك التقى ، والعلم ، والحلم ، والنهى ،
وبذل اللُّها ، والبأس ، والنظم ، والنثر (٣)
هُمامٌ ، إذا لاقى المناجزَ رَدَّه ، وإقباله خطو ، وإدباره حُضْر (٤)
* محاسن ، ما للروض خامره الندى
رُوَاءٌ – إذا نُصَّتْ حلاها – ولا نَشْر (٥)

---

(١) وسن : نعاس . ورواية نفح الطيب : « شككنا فلم ندرك .. » .

(٢) رواية نفح الطيب : « .. وما إن تمشت فى معاطفها خمر » .

(٣) اللها : العطايا ، أو أفضل العطايا ، واحدها لهوة ولهية .

(٤) المناجز : المبارز فى القتال . إقباله حضر (بالضم) : أى مثل الحضر وهو عدو الفرس .

(٥) خامره الندى : خالطه . رواء : منظر حسن . نصت : وضعت فوق المنصة . نشر : طيب رائحة . ورواية الديوان : « ولا بشر » .

* متى انتشقت لم تعز « دارينُ » مِسْكَها
حياء ، ولم يفخر بعنبره « الشِّحْرُ »(١)

* عطاء ولا منّ ، وحكم ولا هوى ، وحلم ولا عجز ، وعز ولا كِبْر

() قد استوفت النعماء فيكَ تمامها عليك ، فمنا الحمدُ لله ، والشكر

---

(١) لم تطر : لم تمدح من أطرى بمعنى مدح وأثنى . دارين : موضع بالبحرين مشهور بالمسك الطيب . الشحر : ساحل البحر بين عدن وعمان مشهور بالعنبر . ورواية نفح الطيب : « متى انتشقت لم تدر دارين مسكها » .

<u>اتجاهات الحركة الإبداعية</u>

وفى هذه القصائد الثلاث ، يمكن أن نشير إلى اتجاهات الحركة الإبداعية كما تصورناها من قبل :

(ا) <u>نقل المعانى</u> :

١ — البيت الأول فى القصيدة الأولى :

ألم تر أن الشمس قد ضمها القبر وأن قد كفانا فقدنا القمر البدر

نقل معناه إلى القصيدة الثانية فى قوله :

فديناك إن الرزء كان غمامة طلعت لنا فيها كما يطلع البدر

وإن اختلفت الصورة ، فهى فى البيت الأول صورة بدر يخلف شمساً فيحل محلها فى الإشراق وهداية الطريق ، وفى البيت الثانى صورة بدر بدد الظلماء ومحاها .

٢ — البيت العاشر والثلاثة الأبيات بعده فى القصيدة الأولى :

أهابت إليه بالقلوب محبة هى السحر للأهواء بل دونها السحر

مرت حيث لا تسرى من الأنفس المنى

ودبت دبيبا ليس يحسنه الخمر

لبستانديه الأمن تندى ظلاله وزهرة عيش مثل ما أينع الزهر

وعادت لنا عادات دنيا . كأنها بها وسن ، أو هز أعطافها سكر

نقل معناها إلى القصيدة الثالثة حيث قال :

شككنا فلم نثبت . أ أيام دهرنا بها وسن أم هز أعطافها سكر

وما إن تغشتها مغازلة الكرى وما إن تمشت في مفاصلها خمر

سوى نشوات من سجايا مملك يصدق في علياتها الخبر الخبر

فالمحبة في القصيدة الأولى أمرت أمنا وعيشا مزهرا وعادات ، وهي هي نشوات السجايا في القصيدة الثالثة التي رأوا آثارها عيانا .

٣ — البيت الرابع عشر في القصيدة الأولى :

عليك له منا النصيحة والهوى

ومنه الأيادى البيض والنعم الخضر

نقل معناه إلى القصيدتين في قوله :

قد استوفت النعماء فيكم تمامها علينا ، فمنا الحمد لله والشكر

قد استوفت النعماء فيك تمامها عليك ، فمنا الحمد لله والشكر

فالنعمة قارة الممدوح ، يقابلها النصح والحب في القصيدة الأولى ، والحمد لله والشكر في القصيدتين ، ولا شك في أن مقابلتها بالحمد والشكر لله أدل على المدح ، ولكن لا ننسى أن ابن زيدون ، كان في قصيدته الأولى، لا ينظر إلا ذاته وما يعود عليه من جدوى الممدوح .

٤ — البيت السادس عشر في القصيدة الأولى :

فقل للحيارى : قد بدا علم الهدى

وللطامع المغرور : قد قضى الأمر

نقل معناه إلى القصيدتين ، فى قوله فى القصيدة الثانية :

فديناك : إن الرزء كان غمامة ... طلعت لنا فيها كما يطلع البدر
ألست الذى إن ضاق ذرع بحادث
تبلج منه الوجه واتسع الصدر

وفى قوله فى القصيدة الثالثة :

لك الخير : إن الرزء كان غيابة ... طلعت لنا فيها كما يطلع البدر
فقرت عيون كان أسخنها البكا ... وقرت قلوب كان زلزلها الذعر
ولولاك أعيا رأبنا ذلك الثأى ... وعز فلما ينتعش ذلك العثر

فكلها تحتوى على معنى سياسى يرتبط بحركة تنصيب الأمير ، فقد كانت هنا وهناك فى « قرطبة » وفى « إشبيلية » على السواء أطماع فى السلطة ، وخوف لدى الأولياء أن يتغلب أصحاب هذه الأطماع ، حتى قضى الأمر ونودى باسم الأمير ، واستقرت فى يده مقاليد الحكم .

٥ — معنى البيتين الثامن عشر والتاسع عشر فى القصيدة الأولى وهما :

دع الدهر فجع بالذخائر أهله ... فما لنفيس مذ طواك الردى قدر
تهون الرزايا بعد وهى جليلة ... ويعرف مذ فارقتنا الحدث النكر

نقل إلى القصيدتين ، فى قوله :

أأنفس نفس فى الورى أقصد الردى
وأخطر علق للهدى أهلك الدهر
أأنفس نفس فى الورى أقصد الردى
وأخطر علق للهدى أفقد الدهر

إلا أنه فى القصيدة الأولى هون من شأن كل نفيس يفقد ، وكل رزية تأتى بعد مهما جلت .

٦ — يقول فى القصيدة الأولى :

فلا تبعدن : إن المنية غاية إليها التناهى ، طال أو قصر العمر

ويقول فى القصيدتين :

إذا الموت أضحى قصر كل معمر فإن سواء طال أو قصر العمر

والمعنى واحد : الموت غاية كل حى ، والهدف واحد : العظة ، وإن زاد البيت الأول هذا الدعاء التقليدى (لا تبعدن) ، الذى لا يصور الحزن كعاطفة .

٧ — البيت الثالث والعشرون فى القصيدة الأولى :

عزاء . فدتك النفس عنه ، فإن ثوى

فإنك لا الوانى ولا الضرع الغمر

ينقل الشاعر معناه إلى القصيدة الثانية إذ يقول :

تعز بحواء التى الخلق نسلها فمن دونها فى العصر يتبعه العصر

وإلى القصيدة الثالثة حيث يقول :

وأجمل عن الثاوى العزاء فإن ثوى

فإنك لا الوانى ولا الضرع الغمر

والهدف : التعزية ، والمعنى واحد ، وإن بدت صورة البيت فى القصيدة الثانية فى إطار نسوى ، لأن المرثية امرأة ، فهو يجعلها حواء زمانها ، ليشير إلى خلود رسالتها وانتقالها من جيل إلى جيل .

٨ — البيت الرابع والعشرون فى القصيدة الأولى :

وما الرزء فى أن يودع الترب هالك !

بل الرزء كل الرزء أن يهلك الأجر

يتابع معناه فى القصيدتين حيث يقول :

مصاب الذى يأسى بميت ثوابه
هو البرح لا الميت الذى أحرز القبر

والفكرة فى الأبيات الثلاثة : المصيبة فى إضاعة أجر الصبر ، لا فى موت من مات .

٩ — البيتان الخامس والعشرون والسادس والعشرون فى القصيدة الأولى:

أمامك من حفظ الإله طليعة　　وحولك من آلائه عسكر مجر
وما بك من فقر إلى نصر ناصر　　كفتك من الله الكلاءة والنصر

ينقل معناهما إلى القصيدتين فى قوله :

ألم تر أن الدين ربع ذماره　　فلم يغن أنصار عديد ولا وفر(١)
بحيث استقل الملك ثانى عطفه　　وجرر من أذياله العسكر المجر

فالفكرة فى ارتباط الخاطب بالدين واعتماده على حفظ الله ونصره ، وإن كان البيتان فى القصيدة الأولى نصا فى المدح ، وفى غيرها تسلية وتسرية.

١٠ — البيت السادس والعشرون وما بعده فى القصيدة الأولى ، حيث يقول الشاعر :

وما بك من فقر إلى نصر ناصر　　كفتك من الله الكلاءة والنصر
الك الخير - إنى واثق بك شاكر　　لمثنى أياديك التى كفرها الكفر
تحامى العدا — لما اعتلقتك — جانبى

وقال المناوى : شب عن طوقه عمرو

يلين كلام كان يخشن منهم　　ويفتر نحوى ذلك النظر الشزر

نقل معانيها إلى القصيدة الثالثة حيث يقول :

---

(١) فى القصيدة الثالثة :

ألم تر أن الدين ضيم ذماره　　فلم يغن أنصار ، عديدهم دثر

هو الظافر الأعلى المؤيد بالذى   له فى الذى ولاه من صنعه سر
رأى فى اختصاصى ما رأيت وزادنى   مزية زلفى من نتائجها الفخر
وأرغم فى برى أنوف عصابة   لقاؤهم جهم ولحظهم شزر
إذا ما استوى فى الدست عاقد حبوة   وقام سماطا حفله فلى الصدر
وفى نفسه العلياء لى متبوأ   ينافسنى فيه السماكان والنسر
يطيل العدا فى التناجى خفية   يقولون : لا تستغرب ؛ قد قضى الأمر
مضى نفثهم فى عقدة السعى ضلة   فعاد عليهم غمة ذلك السحر
يشب مكانى عن توقى مكانهم   كما شب قبل اليوم عن طوقه عمرو

ففى كلتا القصيدتين يذكر حياطة الله لأميره، ويثنى على نائله، ويفخر بتقريبه إياه، تقريبا أذل العدا، وإن أطال فى القصيدة الثالثة تصوير حركة أعدائه وحساده ونتائجها فذاك — كما علمنا(١) — لأنهم بذلوا جهد الحريص على إذلاله فأخزاهم « المعتمد بالله » عنه، فالشاعر يعرض بهم، ويزيدهم كمدا.

١١ — ويقول « ابن زيدون » فى القصيدة الأولى :

لك الخير. إنى واثق بك، شاكر   لمثنى أياديك التى كفرها الكفر

ويقول فى القصيدة الثالثة :

لئن كنت لم أشكر لك المنن التى   تمليتها تترى لأوبقنى الكفر

---

(١) أنظر ص٢٥ و ص ١١١ من هذا الكتاب.

والمعنى واحد : أنعم متتالية مكرورة تستحق الشكر ، ولا مجال لنكرانها .

١٢ — يقول «ابن زيدون» فى القصيدة الثانية :

سحائب نعمى أبرقت وتدفقت فصيبها الجدوى وبارقها البشر

إذا ما ذكرتم واستشفت خلالكم

تضوعت الأخبار واستمجد الخبر

وفى القصيدة الثالثة :

محاسن · ما للروض خامره الندى

رواء — إذا نصت حلاها — ولا نشر

متى انتشقت لم تطو «دارين» مسكها

حياء ، ولم يفخر بعنبره «الشحر»

وفى كلتيها يصف نعم الممدوح وعطاياه . التى ذاعت فى كل مكان ، وفرضت الثناء عليها واللهج بذكرها .

(ب) نقل الألفاظ نقلا حرفيا :

فى الأمثلة التى ذكرناها منذ قليل رأينا أبياتا نقلت من القصيدة الثانية إلى القصيدة الثالثة نقلا حرفيا ، وفى القصيدة غير هذه الأمثلة كثير ، فارجع إليها مع الرمز (ه) ، وهذه الأمثلة وتلك لا تفيدنا فى استبانة حركة الإبداع الفنى كثيراً وتتبع مجراها ، لهذا نجاوزها .

(ح) نقلُ الألفاظ مع تعديل :

وفى القصيدتين الثانية والثالثة أبيات نقلت ألفاظها مع تعديل ، ونحن نبحث عما وراء هذا التعديل : أجاء عفو الخاطر ، أم مقصوداً لأداء معنى ، أو جلاء صورة ، أو تصحيح عبارة ؟ . ونذكر أمثلة :

١ — يقول فى القصيدة الثانية :

ستصبر صبر اليأس أو صبر حسبة
فلا ترض بالصبر الذى معه وزر
حذارك من أن يعقب الرزء فتنة يضيق لها عن مثل أخلاقك العذر
إذا أسف الثكل اللبيب فشفه رأى أبرح الثكلين أن يحبط الأجر

وفى القصيدة الثالثة :

ستصبر صبر اليأس أو صبر حسبة فلا تؤثر الوجه الذى معه الوزر
حذارك من أن يعقب الرزء فتنة يضيق لها عن مثل إيمانك العذر
إذا أسف الثكل اللبيب فشفه رأى أفدح الثكلين أن يهلك الأجر

وفى كلتا المجموعتين حديث عن فلسفة الصبر ، ولم تأت الألفاظ المبدلة بجديد معنى ، ولا كشفت عن عاطفة مغايرة .

٢ — يقول فى القصيدة الثانية :

هو الضيم لو غير القضاء يرومه شآه المرام الصعب والمسلك الوعر
إذا عثرت جرد السوابح فى القنا بليل عجاج ليس يصدعه فجر

وفى القصيدة الثالثة :

هو الضيم لو غير القضاء يرومه ثناه المرام الصعب والمسلك الوعر
إذا عثرت جرد المناجج فى القنا بليل عجاج ليس يصدعه فجر

وليس بينهما كبير اختلاف ، ولعله عدل عن « جرد السوابح » مع خفتها إلى « جرد المناجيج » ليكشف عن منة لغته .

٣ — فى القصيدة الثانية :

هنيئا لبطن الأرض أنس مجدد بثاوية حلته فاستوحش الظهر

وفى القصيدة الثالثة :

لئن كان بطن الأرض هيىء أنسه   بأنك ثاويه لقد أوحش الظهر

وداعية هذا التغيير — فيما نرجح — هو رثـــاء الأنثى أولا ، والذكر ثانيا .

٤ — وكذلك الأمر فى قوله أولا : عليها سلام الله تترى تحية . . .

ثانيا : عليك من الله السلام تحية . . .

وفى قوله أولا : فلا نهض الدنيا جناحك بعدها . . .

وثانيا : فلا نهض الدنيا جناحك بعده . . .

٥ — فى القصيدة الثانية :

بنى جهور أنتم سماء رياسة   لعافيكم فى أفقها أنجم زهر

وفى القصيدة الثالثة :

فإنك شمس فى سماء رياسة   تطلع منهم حولها أنجم زهر

وقد عدل عن هذا النداء (بنى جهور) إلى هذا الوصف (فإنك شمس)؛ لأنه كان يخاطب فى الآخرة بنى عباد .

(ى) التقديم والتأخير:

أعد قراءة القصيدة الثانية من أول البيت :

فديناك . إن الرزء كان غمامة   طلعت لنا فيها كما يطلع البدر

حتى آخر القصيدة وأعد قراءة القصيدة الثالثة ، من أول البيت :

وأجل عن الشاوى العزاء فإن ثوى

فإنك لا الوانى ولا الضرع الغمر

حتى آخر القصيدة .

تجد أكثر من عشرة أبيات متماثلة ، ولكنها مختلفة الترتيب(١) ، مما يدفع إلى القول بأن الشاعر كان يلح عليه شعره الأول أن يفرغه كما هو ، وإن وجهه إلى مكانه الجديد .

(هـ) الحذف :

وقعت للشاعر أبيات فى القصيدة الثانية ، لم يشأ أن يثبتها فى القصيدة الثالثة ، مثل قوله :

لنا فى سوانا عبرة . غير أننا   نغر بأطمـــاع الأمانى فنغتر

وقد استبعده ؛ لأن فيه حديثا عن الانخداع بالأمانى الكاذبة والاغترار بها ، وذلك مما لا يليق بالتأسية .

ومثل قوله :

بطاهرة الأثواب فاتنة الضحا   مسبحة الآناء محرابها الخـــدر

والأبيات التالية ، ففيها وصف لهذه الراحلة الحصان التقية النقية المصونة المحجبة ، وذلك حديث يليق برثاء الأنثى ، التى يعتبر رثاؤها من أصعب ألوان الرثاء وأضيقها معانى .

(و) الإضافة :

وعلى العكس من الحذف أورد الشاعر فى قصيدته الثالثة أبياتا جددا ، منها :

أعباد يا خير الملوك لقد عدا   عليك زمان من سجيته الغـدر

والأبيات التالية . وقد أضافها فى مقابلة الأبيات التى وصف فيها الحصان المحجبة فى القصيدة الثانية .

---

(١) الأبيات المتماثلة قبل هاتين المجموعتين مرعى ترتيبها .

ومنها :

وأبيض فى طى الصفيح كأنه صفيحة مأثور طلاقته الأثر

وأبيات بعد هذا البيت تجاوز العشرين عدا ، وفيها تعداد مآثر الميت ، وذم الزمان بعده ، وشكر أنعمه التى سلفت ، وتوطين النفس على عهد جديد ، وذلك لأن المعتضد بالله ، كان قد أولاه من الأيادى والنعم ، ما يستأهل الذكر ، فهو ينطق بها ويشيد .

ومنها :

ولما قدمت الجيش بالأمس أشرقت

إليك من الآمال آفاقها الغبر

والأبيات التالية وهى حكاية حال ، صورت الأمير الجديد فى موكب الإمارة ساعيا إلى الصلاة ، ثم ميمما إلى قصر الحكم ، ليباشر سلطانه .

ومنها :

وما أعطت السبعون قبل أولى الحجا

من الإرب ما أعطتك عشروك والعشر

وفى هذا البيت يمدحه بكمال العقل والفطنة الذى أفاده فى شبابه ولم يفده غيره من عمر السبعين .

ومنها :

همام إذا لاقى المناجز رده وإقباله خطو وإدباره حضر

فيذكر همته ، ويمدح بأسه وشجاعته ، وخبرته بفنون الحرب والمناجزة .

النص السادس(*)

قصيدة أرسلها « ابن زيدون » إلى صديقه
« أبي حفص بن برد »

١ - ما عَلَى ظَنِّيَ باسُ ؛ يجرحُ الدهرُ ويأسُو

٢ - ربّما أشرف بالمر ء على الآمال ياس

٣ - ولقد يُنجيك إغفا ل ، ويُرديك احتراس

٤ - والمحاذير سهام ، والمقادير قياس

---

١ - باس : بأس بهمزة مسهلة وهو العذاب والشدة . يأسو : يأسو بهمزة مسهلة أيضا . بمعنى يداوى . يقول : ما في ظنى بأس ، فإن طبيعة الدهر أن يجرح ويداوى . أن يعطى ويأخذ . أن يمنح ويحرم ، فأنا إن ظننت خيرا وجاءت الأحداث بخلاف ظنى فما في ذلك بأس .

٢ - ياس : يأس بهمزة مسهلة . يقول : ربما دفع اليأس بالمرء إلى المأمول من حيث لا يظن .

٣ - قد تتناقض التوقعات ، فينجو الغافل ، ويردى المحترس المتيقظ . وفي رواية « ويؤذيك احتراس » .

٤ - هذا البيت ساقط من نسخة الديوان . والمحاذير : جمع محذور ، والمقادير : جمع مقدور وقياس (هنا) جمع قوس . يشبه المحاذير بالسهام والمقادير بالأقواس ، والقوس يلقى السهم فالمقدور إذن يأتى بالمحذور .

(*) ديوان ابن زيدون : تحقيق كيلانى وخليفة ص ١ - وتحقيق محمد سيد كيلانى ص ٦١ .

٥ ـ ولكم أجدَى قعودٌ ، ولكم أكدَى التماسُ

٦ ـ وكذا الدهرُ ، إذا ما عزَّ ناسٌ ذَلَّ ناس

٧ ـ وبنـــو الأيام أخيا فٌ : سَراةٌ ، وخِساس

٨ ـ نَلبسُ الدنيا ، ولكن متعة ذاك اللبـــاس

٩ ـ يا أبا حفص — وما سا واك فى فَهْــمٍ إياس —

١٠ ـ مِنْ سَنا رأيك لى — فى غَسَق الخطب — اقتباس

---

٥ — أجدى : أفاد ونفع . أكدى : أخفق ولم يفد . التماس : تطلب وسعى . يقول : كثيراً ما يكون القعود عن السعى سبيلا إلى الظفر ، وكثيراً ما يكون السعى والجد والتحصيل من ورائه الإخفاق .

٦ — هذه سنة الدهر : يعز ناس ويذل آخرون .

وفى رواية : « وكذا الحكم » .

٧ — أخياف : مختلفون ويقول أحد الاعراب « الناس أخياف وشتى فى الشيم » . سراة : أشراف جمع سرى . خساس : حقراء جمع خسيس .

يقول : الناس مختلفون ، منهم السراة الأشراف ، والخساس الحقراء .

٨ — نحن نتمتع بدنيانا تمتع الإنسان بلباسه ، ولكن إلى أجل ، فنحن مضطرون إلى خلع دنيانا ، مثلما نخلع الثياب من بعد زينة .

٩ و ١٠ — أبو حفص : صديقه الذى توجه إليه بالشعر . إياس : هو إياس بن معاوية المشهور بالذكاء تولى القضاء فى عهد عمر بن عبد العزيز وبذكائه ضرب أبو تمام المثل فى بيته المشهور :

=

١١ ـ وودادى لك نَصٌّ ، لم يخالفه قيـــاس
١٢ ـ أنا حيران ، وللأمـــر وضـــوح والتباس
١٣ ـ ما تَرَى فى مَعْشَرٍ ، حا لوا عن العهد ، وخاسوا

= إقدام « عمرو » فى سماحة « حاتم » فى حلم « أحنف » فى ذكاء « إياس »

سنا رأيك : ضوئه . غسق الخطب : ظلمته . اقتباس : يقصد استفادة . تقول : اقتبس منه علما أو ناراً أى استفد .

فى البيتين : يصف صاحبه بذكاء يفوق ذكاء « إياس بن معاوية » ، فهو يدعوه إذن أن يدله على الرأى الذى يسترشد به فى خطبه الملم .

١١ — النص : السند المقطوع بصحته ويكون فى عرف الأصوليين بالكتاب والسنة . والقياس : إلحاق قضية بأخرى ويكون عند الفقهاء إذا عدم النص فيلحقون قضية بأخرى لاشتراكهما فى علة ، فتأخذ القضية الثانية حكم القضية الأولى .

يقول : إن ودادى لك صريح مقطوع به لاخلاف فيه .

وفى رواية : « لم يخالفه القياس » .

١٢ — يعرض قضيته : أنا حيران ، لا أهتدى إلى طريق الخلاص . فالأمر يتضح تارة لى ويلتبس أخرى .

١٣ — حالوا : تحولوا . خاسوا : خانوا ونكثوا .

يسأله فى حكم هؤلاء الذين تحولوا عنه وخانوا قضيته ، وهم « أبو الحزم ابن جهور » ، وحاشيته .

١٤ – ورأوني سـامريًّا ، يُتَّقَى منه المساس
١٥ – أذؤبٌ هامتْ بلحمي ؛ فانتهـاشٌ ، وانتهاس
١٦ – كلُّهم يَسـأل عن حا لي ، وللذئبِ اعتساس
١٧ – إن قسـا الدهرُ فللما ء مِن الصخر انبجاس

---

١٤ – السامري : اليهودي المنافق الذي سولت له نفسه عبادة العجل ، فزين لبني إسرائيل في غيبة موسى الكليم أن يعطوه حليهم ووضعها – كما قيل – في حفرة ، ورشها بتراب من أثر فرس جبريل ، فصيغت عجلا له خوار ، وزعم أنه إلههم وإله موسى ، وعاقبه الله بتحريم مخالطة الناس له ومكالمته ومبايعته ومواجهته ومعايشته ، وإذا اتفق أن يماس أحدا حم الماس أو الممسوس . اقرأ قصته في سورة طه – الآيات ٨٣ – ٩٧ .

يقول : إن هؤلاء نظروا إلى مثلما نظر اليهود الأنقياء إلى السامري فاجتنبوه .

١٥ – أذؤب : جمع ذئب . انتهاش : أخذ بالأضراس . انتهاس : أخذ بمقدم الأسنان .

يقول : ظهروا لي ذئابا كواسر فجعلوا يغتابونني .
وفي رواية : «فانتهاب وانتهاس» .

١٦ – اعتساس : طواف بالليل أو طلب للصيد بالليل . أي أنهم كانوا يتظاهرون بالود له ويسألون عن حاله ، وحقيقتهم أنهم يتعسسون كما يعتس الذئب ليتعرف إلى مواطن فريسته ومن أين تؤتى .

١٧ – انبجاس : تفجر .

يسلي الشاعر نفسه ، وينظر انفراج الأزمة كما أن من الحجارة ما يتفجر منه الماء .

١٨ ـ ولئن أمسيتُ محبو   سا فللغيث احتبـاس
١٩ ـ يَلْبَد الوردُ السَّبَنْتَى ، وله – بعدُ – افتراس
٢٠ ـ فتأمَّلْ ، كيف يَغْشَى مُقْلَةَ المجد النعاس
٢١ ـ ويُفَتّ المسكُ فى التر   ب ، فيُوطـأ ، ويداس
٢٢ ـ لا يكن عَهدُك وَردا ؛ إنّ عهـدى لك آسُ
٢٣ ـ وأدِرْ ذكرَى كأساً ، ما امتطتْ كفَّك كاس

١٨ — ويهون من أمر حبسه . وهو موقن بالفرج بعد الشدة والحرية بعد ذل القيد ، ويستدل لنفسه بالغيث : نافع فى كل وقت ولكنه قد يحبس لوقت الحاجة .

١٩ — يلبد (من باب فرح ونصر) : يقيم ويلصق الأرض . الورد : من أسماء الأسد . السبنتى : الجرىء . يشبه نفسه بالأسد يلازم الأرض حينا ، ثم لا ينفك يعدو مفترسا .

٢٠ — ما يزال يهون على نفسه ، فيرى المجد مطموسا مثلما يغشى النعاس العين إلى حين .

٢١ — يوطأ : يوطأ مسهلة .

وكذلك قد يوطأ المسك ويداس وقتا ، ولكنه يدل على نفسه بعد حين .

٢٢ — الورد والآس : من الزهور ، ولكن الأول سريع الذبول والثانى طويل الأمد .

يقول لصديقه : لا يكن عهدك قصيرا سريع الذبول ؛ فإن عهدى لك عهد دائم طويل المدى .

٢٣ — ويدعوه أن يذكره فى كل حين ، كلما أحس نعمة الحياة التى حرمها الشاعر .

٢٤ — واغتنمْ صَفْوَ الليالى ؛ إنما العَيْشُ اختلاس

٢٥ — وعسى أن يَسمح الدهرُ ؛ فقد طال الشِماس

---

٢٤ — اختلاس : أى سلب وفرصة .

يقول له : لا تفلت فرصة النعيم ، فإنما العيش فرص .

٢٥ — يسمح : يجود والرجل السمح : الجواد الكريم . الشماس أى الاستعصاء . يقال : شمس الفرس شماسا وشموسا منع ظهره .

يقول : أرجو أن يسمح الدهر باللقاء وبالحرية وبنعمة الحياة الكريمة فقد طالما استعصى وامتنع .

تحليل ونقد

المجال الفكرى :

١ — افتتح ابن زيدون قصيدته بعدة معان قدرية جبرية ، فأسلم زمامه للدهر ، يجرحه ويأسو جراحه ، ويعطيه ويأخذ منه ، ويمنحه ويحرمه ، فلا داعى للتفكير فى مجرى الأحداث وارتقاب نتائجها ، فربما دفع اليأس بالمرء إلى مأموله من حيث لا يتوقع ، ولقد ينجو الغافل ، ويهلك المحترس المستيقظ ، وقد تأتى المقادير بالمحاذير ، وكثيرا ما أجدى القعود عن السعى ظفرا وغنما ، وأخفق السعى والجد والتحصيل . وسنة الحياة الدنيا : ناس أعزاء وناس أذلاء ؛ سراة أشراف وخساس حقراء . وإذا عشنا فى دنيانا وإلى أجل ، نخلعها فيه مثلما نخلع أرديتنا من بعد زينة .

٢ — وتوجه بعد هذا إلى صديقه ذى الحجا والألمعية ، يستشيره ، وهو يصدقه الود ، ويعرض قضية حيرته ، ويسأله الرأى فى الخونة ، الذين

غدروا به، ولم يفوا له، وتحاموه، واجتنبوه، ونافقوه؛ مظهرين وده، وهم يبطنون الحقد عليه والسعى فيه.

٣ – وجعل يسلى نفسه، ويقوى أمله فى الخلاص من سجنه، ويحسب قسوة الدهر موقوتة، وأحس قيمته، فازدهى، وهو يتصور نفسه غيثا نافعا قد يحبس لوقت الحاجة، وأسدا جريئا يلازم الغاب ويسكن حتى يثب، ومقلة يجد يغشاها النعاس إلى حين، ومسكا طيبا يزيده الفت والوطء والدوس قيمة.

٤ – وناشد صديقه؛ استدامة وده، واستبقاء ذكراه، وكأنما تذكر ليالى أنسه وصفوه، فدعا صديقه إلى اغتنام مثلها، فالعيش خلس، ورجا أن يسمح الدهر من بعد عصيان ويلين من بعد صلابة، ويسهل من بعد امتناع، ويقبل من بعد إدبار.

المجال التصويرى :

الصورة التى تطيف بالقصيدة هى صورة المصرور، الذى يبتلع تناقضات الحياة، ويستوى لديه السعى والقعود، والنجح والخيبة، والعز والذل، ولا يفرح بدنياه : إلا فرحة موقوتة، كأنها الرداء يلبس إلى أمد.

ويقف الشاعر على أعراف الحياة، يلتمس لدى صديقه ـ ذى الألمعية التى تفوق ألمعية «إياس بن معاوية» ـ قبس الرأى؛ ليخرجه من حيرته ويدله على طريق الخلاص، ويحكم بينه وبين ذئاب البشرية، الذين نهشوا لحمه، وتوددوا له، وهم يضمرون الكيد والمضرة، كالذئب يعقس؛ ليتعرف مداخل فريسته ومخارجها، ومأتاها.

ويلمح فى ظلام محنته خيطا رفيعا من الأمل، فيتعلق به تعلق الغريق بطوق النجاة، ويورى ومضة أمل، من بعد ما أقعده اليأس، ويتصور

قسوة الدهر إلى لين ، وضيقه إلى سعة ، كما ينبجس الصخر ، « وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء(١) » .

ويداعب هذا الأمل شاهيته ، ويستغل محنته الدلالة على جدواه ، ويحطم آلامه على قدمى كبريائه ، وهو يتصور نفسه غيثا يجمع خلف الصدود لوقت الحاجة ، وأسدا جريئا يسكن لحين الوثوب ، ويتصور محنته الواقعة نعاسا يغشى العين إلى حين تستيقظ ، ومثل فت المسك ، فى ظاهره يهين المسك ويدوسه ، وفى حقيقته يستخرج طيبه فيغليه .

ويبحث عن صديق يعاطيه مودة خالصة ، ويرغب إلى « ابن رد » فى أن يكون ذاك الصديق ، ويخشى أن يتنكر له كما تنكر له أصدقاء الأمس فيعرض عليه صداقة دائمة ويطمع فى مثلها منه ، ويدعوه إلى عهد يبقى طويلا بقاء الآس ، ولا يذبل سريعا ذبول الورد ، ويدعوه الى أن يذكره كلما انتشى .

وكأنما أحس ألما حين طاف بالكأس خاطره ، فتذكر ماضى مسراته ، وسالف صبواته ، فنصح صديقه أن يغنم صفو الليالى ، ولا يفلت فرص العيش . وسبح سبحا طويلا وهو يرجو أن يسمح الدهر بحريته ، وينعم عليه بطيب الحياة ، فقد طالما شمس الدهر وعصى .

الجمال الفنى :

١ – استطاع « ابن زيدون » أن يعطينا فى هذه القصيدة تجربة عاطفية عاتية عارمة ، لم ترتبط بالعقل إلا حين مس منطق السخرية من الحياة . فهذه القدرية الجبرية التى استسلم لها فى أول القصيدة إنما استسلم لها عن إفلاس لا عن اقتناع . وهذه الدعوة فى آخر القصيدة إلى اغتنام الفرص ليست دعوة أملاها العقل وإنما هى دعوة المحروم النادم على ترك الماضى فارغا دون أن يملأه بالسكر والنشوة والمرح . وفيما بين ذلك حسرات ولوعات ، وعض

---

(١) سورة البقرة : آية ٧٤ .

زمان لم يدع صديقا صدوقا ، وأمل أشرق فى ذهنه وخبا لحظة إشراقه .

٢ — وهذه الفلسفة العاطفية جاءت تشاؤمية ؛ فلاجدوى عنده من السعى ، والمجتمع كما رآه مجتمع ذئاب ، والصداقات فى هذا المجتمع قائمة على النفاق والغيبة ، ورهن بالمنافع الذاتية ، حتى صديقه يشفق هو من أن يتنكر له ، والدنيا خلس ، وانتهاز فرصتها إنما جاء ـ كما ذكرنا ـ انعكاسا عن الحرمان .

ونلمح وسط هذه الفلسفة العاطفية التشاؤمية بصيصا حائلا من التفاؤل ؛ مصورا فى انبجاس الصخر ، وانطلاق الغيث ، وإزاحة النعاس عن عينى المجد ، وفت المسك فى الترب لإغلائه ؛ وهو تفاؤل الحالمين وأمل العاجزين .

٣ — أسهمت المقابلات البيانية وسائر الصور البيانية فى تداعى صور التمزق العاطفى ، الذى بدا لنا أول الأمر سخرية حادة لم تلبث أن تحولت إلى استجداء المشورة ، وشكوى الأصدقاء ، ثم ارتفعت إلى سطح الأمل ، فبدت للشاعر فى زهوه وصلفه ، ثم انكفأت إشفاقا من صديقه عينه أن ينقلب عليه ، وانتهت إلى قيمة سلبية بالدعوة إلى اغتنام صفو الليالى ، يظنها بر النجاة .

٤ — قالب القصيدة ناغم راقص ، ولكن قصر الوزن أعطانا دفعات انفعالية أشعرتنا بتقطع أسباب العواطف ، وساعدت فى ترجيع الأنين هذه « السين » ـ الروى ـ وماقبلها من مد ، وتقييد الروى بهذه « الضمة » التى تفرض طولا يتكافأ مع طول المد .

أضف إلى هذا كله اختيار الألفاظ الموحية بحال الشاعر العاطفية ، وهى فى كل بيت توحى بالحزن وسوء المنقلب ، وتضرب على أوتار الألم واليأس والحيرة والقلق .

٥ — تشير القصيدة إلى ألوان من ثقافة « ابن زيدون » . فى البيت

الثامن تضمين الآية الكريمة : « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور(١) » . وفى البيت التاسع « تلميح » إلى قصة « إياس بن معاوية » القاضى فى زمان «عمر بن عبد العزيز» المضروب به المثل فى الألمعية . وكذلك فى البيت الرابع عشر « تلميح» إلى قصة « موسى السامرى » اليهودى المنافق ، عابد العجل ، ومفرق صفوف اليهود أيام دعوة « موسى الكليم » ـ عليه السلام .

وفى البيت الحادى عشر إشارة إلى أن الشاعر درس « أصول الفقه » ، فهو يذكر « النص » و « القياس » ، حين يجعل وداد، لصديقه نصا ، أى أمرا متفقا فيه ومسلما به ، وليس معه مجال لإعمال الرأى أو النظر بالقياس .

وفى البيت الثامن عشر يقول الشاعر :

ولئن أمسيت محبو سا فللغيث احتباس

وهذه جملة اجتمع فيها قسم وشرط غير امتناعى، ولم يسبقهما «ذو خبر» والمتقدم القسم ، فالجواب يكون للأول لا المتأخر ويكون جواب المتأخر مستغنى عنه بجواب المتقدم . قال « ابن مالك » :

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم
جواب ما أخرت فهو ملتزم

وجواب القسم يكون مؤكداً باللام أو بنون التوكيد أو بهما معا أو منفيا ، وجواب الشرط مجزوم ، أو مقترن بالفاء كما هنا . وهذا رأى الجمهور ، وأجاز « الفراء » توجيه الجواب للشرط ، ائتناسا بقول «الأعشى» من معلقته :

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٨٥ .

لئن منيت بنا عن غب معركة　　لاتلفنا عن دماء القوم ننتقل(١)

وقول امرأة من عقيل :

لئن كان ماحدثته اليوم صادقا　　أصم فى نهار القيظ الشمس باديا(٢)

ومذهب « الفراء » وجيه عندى ، ولا ينبغى رفضه أو تأويل شاهديه.

٦ — مايزال « ابن زيدون » ينظر إلى معانى من سبقوه ،وهو يشعر. يقول :

يلبد الورد السبنتى　　وله - بعد - افتراس

وهو من قول « النابغة » :

وقلت : ياقوم ؛ إن الليث منقبض　　على براثنه الوثبة الضارى

الذى أخذه « ابن الرومى » فقال :

سكنت سكونا كان رهنا بوثبة　　عماس(٣) كذلك الليث الوثب يلبد

وقد زاد « ابن زيدون » المعنى قوة ، حين وصف الأسد بالجرأة.

ويقول « ابن زيدون » :

لايكن عهدك وردا　　إن عهدى لك آس

وهو من قول « العباس بن الأحنف » :

- لاتجعلى وصلنا كالورد حين مضى　　ذا طلعة ، وأديمى الود كالآس

---

(١) روى : « ننتفل » بالفاء ومعناه نتملص ونتخلص .

(٢) روى « ضاحيا » وهى بمعنى «باديا» أى بارزا للشمس من غير شيء يقينى منها .

(٣) وبة عماس (وزان سحاب) لايهتدى لوجهها .

ـ ولـكننى شممت بالورد عهدها وليس يدوم الورد ، والآس دائم

وقد فاق « ابن زيدون » بإيجاز القصر ، وبادعاء أن المشبه هو عين المشبه به ، وليس غيره كما فى صنيع « العباس بن الأحنف » ، وذلك ناشىء من(١) فناء شاعرنا « ابن زيدون » فى الطبيعة ، وامتزاجه بها ، حتى يكون كل شىء فيها مظهرا لمشاعره ومجالا لوجدانه .

---

(١) وانظر حسن جاد حسن : ابن زيدون — ص ١٩٠ .

النص السابع(*)

موشحة فى ذكرى (قرطبة)

---

١ — سقى الله أطلالَ الأحبة بالحِمَى
وحاكَ عليها ثوبَ وَشْىٍ منمنما
وأطلع فيها للأزاهير أنجما
فكم رفلت فيها الخرائدُ كالدمى ، إذ العيشُ غضٌّ ، والزمانُ غلامُ

٢ — أهيمُ بجبّار ، يعِزُّ ، وأخضعُ

---

١ — أطلال : جمع طلل (كأسباب وسبب) ، وهو الشاخص من الآثار . الحمى : المكان يحمى ويمنع من أن يقرب أو يجترأ عليه . منمنم : مزخرف وزنا ومعنى . رفلت فيه الخرائد : جررن أذيالهن ، والخرائد جمع خريدة ، وهى اللؤلؤة لم تثقب والمرأة الحيية . الدمى : جمع دمية (بالضم) وهى الصورة أى التمثال . العيش غض : أى لين ناعم .

يدعو الشاعر لمنازل الأحبة بالسقيا وبالزينة وبالحياة ، ويذكر ما نرفل فيه نساء الحى من النعمة فى أول عهدهن - أو عهده - بالحياة .

٢ — جبار : مبالغة ، من الجبروت بمعنى الكبر ، أو من الجبر بمعنى القدرة على الأمر والنهى . يعز : من العزة بمعنى القوة ، واستعمله هنا مقابلا للخضوع ؛ لأن الخاضع لا يبدى قوة . شذا المسك : رائحته . أردانه: =

(*) ديوان ابن زيدون : تحقيق كيلانى وخليفة ص ١٦٢ وتحقيق محمد سيد كيلانى ص ١٩٧ .

شذا المسك من أردانه يتضوع
إذا جئتُ أشكوه الجوى ليس يَسمع
فما أنا فى شىء من الوصل أطمع
ولا أن يزور المقلتين منامُ

٣ — قضيبٌ من الريحان ، أثمر بالبدرِ
لواحظ عينيه مُلِئْن من السحر
وديباج خديه حكى رونقَ الخمرِ
وألفاظُه فى النطق كاللؤلؤ النثرِ وريقتُه فى الارتشاف مُدامُ

٤ — سقى جنباتِ القصر صَوْبُ الغمائمِ

= أكمامه : مفرد ، ردن (بالكسر) يتضوع : تنتشر رائحته . الجوى : الهوى الباطن والحزن وشدة الوجد وتطاول المرض .

يقول : إنه يهيم ـ خاضعاً ـ بمحبوب صعب المراس ، ويصف حبيبه هذا بطيب العنصر ، ويذكر أنه يصد عنه فلا يسمع شكواه ، بالرغم من استحقاقه عطفه بسبب ما أصابه من حبه ثم يقول : إنه أمسى لا يطمع فى وصال محبوبه ، ومع ذلك ألزمه الحب السهر ، وبات لا يطمع فى الراحة ؛ لأنه ملتذ السهر والأرق .

٣ — يصف محبوبه : القامة عود ريحان ، ثمرتها ـ أى وجهه ـ مثل بدر السماء ، وله عينان ساحرتان ، وخدان صفحتاهما فى لون الخمر ، وينطق لؤلؤاً منثوراً عن لؤلؤ منظوم ، ورضابه الخمر المسكرة .

٤ — صوب الغمائم : مطرها ، والغمائم جمع غمامة . ورق الحمائم : أى الحمائم الورق من إضافة الصفة إلى الموصوف وورق : جمع ورقاء ، ويقال : حمامة ورقاء إذا كانت رمادية اللون . =

وغنّى على الأغصـــان وُرق الحمائم
بقرطبةَ الغـــراء ، دارِ الأكارم
بلادٌ بها شق الشبابُ تمائمى وأنجبنى قومٌ هناك كرامُ

٥ — فكم لىَ فيهـــا مِنْ مساء وإصـــباحِ
بكل غزال ، مشرق الوجــــه ، وضاح
يُقَـــدِّمُ أفواهَ الـكئوس بتفـــاح
إذا طَلَعَتْ فى راحه أنجُمُ الراح فإنّا — لإعظام المدام — قيامُ

٦ — ويوم لدى « النَبْتِيّ » فى شـــاطىء النهر

= يدعو الشاعر للقصر — الذى تقطنه محبوبته فى « قرطبة » — بالحياة ، وعلاماتها فى دعائه نزول المطر وهديل الحمائم . ويذكر أنه قضى صباه فى هذه البلاد ، وفيها ولد . وبحله أهلوه .

٥ — يقدم أفواه الكئوس : يجعل عليها فداماً أى غطاء وسداداً . راحه : يده الراح : الخمر .

يذكر أنه كان فى « قرطبة » يختلف إلى مجالس السرور والطرب ، حيث يشرب ويطرب ويقصف .

٦ — النبتى : موضع فى « قرطبة » معشب ذو ماء . فتية زهر : فتية بيض الوجوه ، وزهر جمع أزهر وهو الأبيض خاصة أو كل لون صاف . اللمى : سمرة فى باطن الشفتين . أهيف الخصر : ضامره . الشذيب : ذو الشنب ، والشنب عذوبة فى الأسنان أو ورقة فيها .

يذكر الشاعر يوماً من أيام لهوه ؛ كان فيه على شاطىء النهر ، ووسط =

تُدار علينــا الراحُ فى فتيــةٍ زُهر
وليس لنا فرشٌ ســوى يانع الزهر
يَدور بها عذبُ اللمى ، أهيفُ الخصر
بفيــه من الثغر الشنيب نظامُ

٧ — وبوم بـ « جُوفِّ الرصـافة » مُبهجٍ
مررنا بروض الأقحوان المــدبج
وقابلنــا فيه نسيم البنفســج
ولاح لنا وَرْدٌ ، كخــدٍ مضرج
نراه — أمامَ النوْر — وهو إمامُ

٨ — وأكرِمْ بأيام « العقــاب » السوالفِ

= الخضرة المزهرة ، يسقيه الخمر فتية بيض . وهو يتغزل فيهم ، ويذكر محاسنهم وهى محاسن مثل محاسن النساء ؛ لأن هؤلاء الفتية كانوا يختارون من المخنثين الناعمين .

٧ – جوف الرصافة : موضع عند « قرطبة » ، أنشأه « عبد الرحمن الداخل » وسماه باسم رصافة جده « هشام بن عبد الملك » فى « دمشق » .
المدبج : المزين .

ويذكر يوماً ثانياً ، حظى فيه بالمتعة ، فى حدائق ذوات بهجة ، أزهر فيها البنفسج والورد .

٨ – العقاب : اسم مكان فى « قرطبة » . الأيام السوالف : الأيام الخوالى ، الواحد سالفة وسالف للمذكر غير العاقل . بيض السوالف : هذه جمع =

ونَهْوِ   أَقْرَاه   بتلك   المعـــاطف

بسودِ أثيث الشـــعر ، بيض السوالف

إذا رفلوا فى وَشْى تلك المطارف   فليس على خَلْع العِذار مَلامُ

٩ — وكم مشهدٍ عنـــد «العقيق» وجِسْرِهِ

قعـــدنا على حُمْر النبات ، وصُفْره

وظبى ، يُسْقينا ســـلافة خمره

حكى جســـدى فى السقم رقةَ خصره

أواحظه — عند الرنوّ — سهامُ

١٠ — فقـــل لزمان ، قد تولّى نعيمه

= سالفة وهى هنا ناحية مقدم العنق من لدن معلق القرط إلى نقرة الترقوة .
والترقوة : مقدم الحلق فى أعلى الصدر ، سميت بذلك لترقى النفس فيها .
المطارف : أردية من خز مربع ذى أعلام .

ويذكر يوما ثالثا عند «العقاب» ، حيث أصاب لهوا مع فتية بيض الوجوه والبشرة سود الشعور ، وانغمس وإياهم فى ملذات .

٩ - العقيق : من أمكنة «قرطبة» اللاهية قريبا من المياه . الرنو : إدامة النظر .

ويذكر يوما رابعا ، تملى فيه بالماء والأزهار ، وسقاه الخمر فتى رقيق نحيل ، ذو عين جارحة .

١٠ - رثت رسومه : بليت آثاره .

يدعو الشاعر لهذا الزمان الذى تولى نعيمه ومضت لياليه بالمتعة المفتقدة.

ورثت على مَرّ الليالي رُسُومُه
وكم رقّ فيه بالعشيّ نسيمُه
ولاحت لسارى الليل فيه نجومه :
عليك من الصب المشوق سلامُ

تحليل ونقد

المجال الفكرى :

بدأ ابن زيدون ، موشحته بالدعوة لمنازل الأحبة ومرابعها بالسقيا والزينة ، وبدوام الحياة ، ذاكرا ما كان ينعم فيه أول عهده ، مع محبوب مرفه صعب المراس ، لا يرق له ، حتى لم يعد هو يطمع فى وصاله ، بالرغم مما ألزمه إياه من الأرق والسهر ، اللذين يلذان له . ويصف لنا محبوبه وصفا حسيا : له قوام نحيل ، ووجه مشرق جميل ، وعينان ساحرتان ، وخدان خمريان ، ومنطق لؤلؤى ، ورضاب مسكر .

ويعود إلى منازل الأحبة التى قضى فيها صباه ، وأنجبه فيها أهلوه الكرام ؛ يدعو لها بالسقيا ، ودوام البهجة .

وأخذ يذكر أمسيات لهوه ، وندوات سكره بين الماء ، والزهر ، والراح ، والشرب ، والسقاة .

ويختم موشحته بالتحية والسلام لعهد تولى نعيمه ما يزال يذكره ، ويذكر طيب نسيمه وجمال لياليه .

المجال التصويرى :

فى الموشحة ثلاثة أوصاف رئيسية :

(ا) وصف منازل « قرطبة » ومرابعها ، حيث أنجبه قوم كرام ، ونشأ فيها يشق تمائمه (المقطع الرابع) ، وقضى فيها شبابه مترفا « إذ العيش غض ، والزمان غلام » ، وتعرف فيها إلى رفيقات الشباب « الخرائد كالدمى » (المقطع الأول) ، وطابت فيها أوقاته ؛ فالعشى رقيق نسيمه ، والليل صاف تلوح نجومه (المقطع العاشر) .

(ب) وصف المحبوبة - « ولادة » - فهى ذات قوام مديد كقضيب من الريحان ، ووجه مشرق كالبدر ، صفحتاه خمريتان ، وذات عينين ملئتا سحرا ، وأسنان منضودة كاللؤلؤ ، وفم عذب ، ورضاب مسكر (المقطع الثالث) . وهذه المحبوبة تعتز بجمالها وقدرها ، وتعيش عيشة ناعمة طيبة ، يتضوع شذا المسك من أردانها . وإنما تربه من الدلال والكبرياء ، ما يؤسه من وصالها ووصال طيفها (المقطع الثانى) .

(حـ) وصف مجالس الخمر وندمانها وسقاتها : ملاه وسط المياه والمروج والزهر ، قد أعدت للقصف والطرب ، يغشاها الندامى يجددون عهودهم ، ويسقيهم الخمر فتيان ناعمون ، وإن شئت فقل فتية ذكران فى إهاب إناث ، الواحد منهم : رشيق كالغزال ، «مشرق الوجه وضاح » (المقطع الخامس) ، «عذب اللمى أهيف الخصر ، منضد الأسنان ، رقيقها (المقطع السادس) ، أسود الشعر ، أثيثه ، أبيض السوالف ، يرفل فى أردية من الحرير ، ويحمل على الفتنة والصبوة (المقطع الثامن) وهو رقيق الخصر ، جارح العينين (المقطع التاسع) . وهذه كلها صفـــات الجمال الأنثوى .

الجمال الفني :

١ — هذه الموشحة واحدة من اثنتين(١)، لم يضم(ديوان ابن زيدون) غيرهما، أسهم بهما فى هذا اللون الموسيقى ، الذى فرضه الترف الفنى فى هذه البلاد .

وكلتا الموشحتين فى ذكرى ، قرطبة ، ومعاهدها ، وأيام صباها .

٢ — نبعت ذكراه الأطلال ، ووصفها ، والدعوة لها بالسقيا ، والزينة ، والبهجة ، والعمران ؛ من أمرين : أولهما ؛ حنينه إليها وقد بعد عنها ، وخلف فيها ذكريات الصبا والشباب والرجولة ، وذكريات محبوبته ، ورفاق أنسه ، والأمر الآخر : هذا التراث الثقافى لأجداده الشعراء العرب ، فقد كانوا يبدءون قصائدهم بذكر الأطلال والديار وما خلفوه من رسوم ، وقد أشبهت حال « ابن زيدون » فى هذا أحوالهم ، فلقد كانوا يتركون منازلهم للنجعة أو الرحلة ، أما هو فقد ترك منازله فاراً ببدنه من أسر السجن وقيده .

٣ — فى المقطعين الثانى والثالث تحدث عن محبوبته بوصف المذكر وضميره .

وليس هذا مذهبه دائماً ، فى ﴿ نونيته ﴾(٢) راوح بين التذكير والتأنيث ، وفى ﴿ قافيته ﴾(٣) صاغ المطلع بخطاب المؤنث ، ثم أورد الضمير بعد ذلك جمع تذكير ، وفى ﴿ كافيته ﴾(٤) احتلت المفردة المؤنثة شعره الغزلى كله ، وفى الأرجوزة الآتية جاء الحبيب واحدا مذكرا(٥) .

٤ — فى قول « ابن زيدون » :

أهيم بجبار ، يعز وأخضع

---

(١) انظر ص ٤٤ من هذا الكتاب . (٢) ارجع الى ص ٥٧ .
(٣) ارجع إلى ص ٨٩ . (٤) ارجع الى ص ٩٥ (٥) انظر ص ١٩٧ .

مسحة من قول الشريف الرضى » :

لو حيث يستمع السرار وقفتما … لعجبتما من عزه وخضوعى

وفى أوصاف شاعرنا فى الخمر وسقاتها تطل شخصية « أبى نواس » وأشعاره ، ونذكر منها قوله(١) :

فجاء بها — تعدو بها ذات مزهر … يتوق إليها الناظرون — ربيب
كثيب علاه غصن بان ، إذا مشى … تكاد له صم الجبـال تنيب
وأقبل محمود الجمال مقرطق … إلى كأسها ، لاعيب فيه ، أريب
يشم الندامى الورد من وجناته … فليس به غير الملاحة طيب

طاب الربيع وأورق الأشجار … ومضى الشتاء وقد أتى آذار
وكسا الربيع الأرض من أنواره … وشيا ، تحار لحسنه الابصار
فانف الوقار عن المجون بقهوة … حمراء ، خالط لونها أقـار
فاستنصف الأيام من أحداثها … فلطالما لعبت بك الأقدار
من كف ذى غنج كأن جبينه … قـمر ، وسائر وجهه دينار
يرمى بعينى شادن وجبينه … والخصر فيه لشقوتى زنار

سقيا لبغداد وأيامنـا … إذ دهرنا نطويه بالقصف
مع فتية مثل نجوم الدجى … لم يطبعوا يوما على خسف
يسقيهم ذو وفرة أحور … يسبل صدغا فاتر الطرف
إن رام إعجالا أبى ردفه … أو رام عطفا أوجر للعطف
يسقيهم حمراء ياقوته … تسرج فى الكأس وفى الكف

(١) ديوان أبى نواس ص ٢١٣ و ٢٦٥ و ٢٨١ و ٣١٤ على التوالى — طبعة المطبعة الحميدية المصرية سنة ١٣٢٢ هـ .

حتى رماه السكر فى طرفه   فباح من سكر بمـا يخفى

ومجلس فتية طابوا وطابت   مجالسهم ، وطاب بها النعيم
تدار عليهم فيها عقار   معتقة ، بها يصبو الحليم
كئوس كالكواكب دائرات   مطالعها على الفلك الأديم
يحث بها كخوط البان ساق   له من قلبى الحظ الجسيم
اطرق منه ميعاد بطرف   وفى قلبى بلحظته كلوم

٥ — برز اهتمام « ابن زيدون » بالبديع ، وبخاصة التجنيس والطباق .
فالتجنيس بين « الراح » بمعنى «اليد» و «الراح» بمعنى « الخمر » فى قوله :

إذا طلعت فى راحه أنجم الراح

وبين « أمام » بمعنى « قدام » و «إمام» بمعنى « قدوة » ، فى قوله :

نراه أمام النور وهو إمام

وبين « السوالف » بمعنى « الخوالى » ، « والسوالف » جمع سالفة وهى صفحة العنق ، فى قوله :

وأكرم بأيام العقاب السوالف   بسود أثيث الشعر بيض السوالف

والطباق كثير : بعز / أخضع — مساء / إصباح — سود / بيض — حمر / صفر .

النص الثامن (*)

أرجوزة فى الحنين أنشأها وهو فى (بطليوس)

غربى (قرطبة)

يادمع ؛ صُبْ ، ماشئت أن تصوبا
ويا فؤادى ، آن أن تذوبا
إذ الرزايا أصبحت ضروبا
لم أر لى فى أهلها ضريبا (١)

* * *

قد ملأ الشوقُ الحشا ندوبا
فى الغرب ، إذ رُحْتُ به غريبا
عليلَ دهر ، سامنى تعذيبا

(١) يادمع صب ما شئت أن تصوبا : انسكب يادمع ماشئت أن تنسكب ، من صاب المطر أى نزل . الرزايا : المصايب . وفى رواية : «إن الرزايا» . ضروبا: صنوفا . ضريبا: نظيرا . يدعو دمعه أن ينسكب ما شاء له أن ينسكب ، وفؤاده أن يذوب ويذوى ، فالرزايا النازلة أصبحت صنوفا وألوانا ، ليس لها نظير ولا مثيل .

(*) ديوان ابن زيدون تحقيق كيلانى وخليفة ص ١٩ وتحقيق محمد سيد كيلانى ص ٢١٦ .

أدنى الضنى ، إذ أبعد الطبيبا[٢]

* * *

ليت القَبول أحـــدثتْ هبوبا

ريح ، يَرُوحُ عهـــدُها قريبا

بالأفق المهدِى إلينـــا طيبا

تعطرت منـــه الصِّبا جيوبا

يُبْرِدُ حرَّ الـكبد المشبوبا[٣]

* * *

---

(٢) ندوبا : الندوب آثار الجروح ، الغرب يقصد غربى الأندلس وقد قال الأرجوزة فى « بطليوس » . سامنى تعذيبا : أرهقنى . وفى رواية الذخيرة « ضامنى تعذيبا » أى ظلمنى . أدنى الضنى : قربه ، والضنى المرض الملازم المشرف بصاحبه على الموت . وفى رواية « أعيا الضنى » .

يقول : كان للشوق — حين كنت فى الغرب غريبا — آثار فى حشاى ، وكنت هناك عليلا مريضا مضنى بعيدا عن الطبيب المداوى وهو حبيبه الذى يشتاق إليه .

(٣) القبول (بالفتح) : ريح الصبا ، وتهب من المشرق فى الجزيرة العربية ، وسميت القبول لأنها تقابل الدبور أو لأنها تقابل باب الكعبة أو لأن النفس تقبلها . يروح عهدها : يرجع . والعهد هنا : المطر الأول المشبوب : يقصد المحترق واحتراق الكبد من نيران الشوق .

يتمنى أن تأتيه الريح من الشرق — حيث حبيبته — متعطرة بالطيب الذى طالما أهدته إياها ، حتى يبرد حر كبده المشتاق .

يا مُتْعِبًا إسْـــــــادَه التأويبا
مشرِّقًا ، قد سئم التغريبـــــا
أما سمعت المثـــــل المضروبا :
(أرسل حكيما ، واستشر لبيبا)
إذا أتيت الوطن الحبيبـــــا
والجانب المســــتوضح العجيبا
والحاضر المنفسح الرحيبـــــا
فحيَّ منه — ما أرى — الجَنُوبا[٤]

***

(٤) الاسئاد : سرى الليل كله لا تعريس فيه . التأويب : سير النهار كله لا راحة فيه . أرسل حكيماً : فى رواية « أرسل حليما » والرواية الأولى متفقة مع الشعر المشهور :

إذا كنت فى حاجة مرسلا   فأرسل حكيما ولا توصه

المستوضح (بصيغة المفعول) المبحوث عنه ، أو الذى يستوضحه الراكب كل آن فى مسيره . الحاضر : الحاضرة والمكان المأهول ضد البادية. ما رأى : جملة اعتراضية .

يقول للراحل الذى سئم التغريب مثلما سئم هو ، والذى يحث السير ليلا ونهاراً يدفعه الشوق : إن حاجتى أتركها لحكمتك ولا أوصيك بها . فإذا أتيت الوطن الحبيب الرحيب ذا الحضارة فحى منه الحى الجنوبى حيث تقطن المحبوبة .

مصـــانع ، تجتذب القـــلوبا
حيث ألفتَ الرشـــأ الربيبا
مخالفـــا فى وصفه الرقيبـــا
كم بات يدرى ليـــله الغربيبا
لما انثنى فى سُكره قضيبـــا
تشـــدو حَمامُ حَلْيه تطريبا
هصرته حـــلو الجنى رطيبا
أرشُفُ منـــه المَبْسِمَ الشنيبا
حتى إذا ما اعتنّ لى مُريبـــا
شـــبابُ أفق ، همّ أن يشيبا
بادرتُ سعيا . هل رأيتَ الذيبا(٥)

• • •

(٥) المصانع : جمع مصنع وهى هنا القرى والمبانى من القصور ومن الحصون. قال « لبيد » :

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع وتبقى الديار بعدنا والمصانع

الرشأ : الظبى الصغير . الربيبا : المربى . وفى رواية « اللبيبا » . مخالفا : غير موافق وفى رواية « مخالسا » . يدرى ليله : يحتال على ليله من درى الظبى أى احتال له وداوره حتى يصطاده . الغربيب : الشديد السواد . هصرته : عطفته وأملته . أرشف : أمص ، وهو يقتضى التقبيل . المبسم : مكان البسم . الشنيب : ذو شنب ، والشنب عذوبة فى الأسنان . اعتن : اعترض . مريبا : ذا ريب .

=

أهاجرى أم موسعى تأنيبـــا
من لم أُسِغْ من بعده مشروبا ؟
ما ضره لو قال : لا تثريبـــا
ولا ملام يلحق القـــلوبا
قـــد طال ما تَجَرَّمَ الذُّنوبا
ولم يَدَعْ فى العذر لى نصيبا(٦)

* * *

إن قرت العينُ بأن أؤوبا
لم آلُ أن أســترضى الغضوبا
حسـبِىَ أن أحَرِّمَ المَغيبـــا

= يذكر ديار محبوبته حيث كان يلقاها صغيرة ، خفية من أعين الرقباء ، وكانت تحتال للقائه ، وهى المترفة المنعمة .

ويذكر ما كان بينهما من عفاف وقبل ، لا يصرفهما عن المتعة إلا النهار الزاحف المريب حينئذ يبادر فارا كما يفر الذئب .

(٦) لم أسغ مشروبا : لم أجده سائغاً . لا تثريب : لا ملامة . تجرم الذنوب : ادعاها .

يسائل نفسه : أهذا الحبيب الذى لم أسغ بعده الحياة هاجرى أم مؤنبى . وما يضره إذا قبل عذرى وكف عن ملامتى ، ولم يمض فى ادعاءاته على ذنوبا لم أفعلها ، كما كان يفعل قبلا ، ثم كان لا يدع لى فرصة العذر .

قد ينفع المذنبَ أن يتـــوبا[٧]

---

(٧) أؤوب : أرجع وأعود لم آل : يقال : لم آل كذا ولا آلوه، أى ما أزال أطلبه وأجهد نفسى فيه .

يقول : إن أتيحت لى الأوبة إلى « قرطبة » أجهدت نفسى فى استرضاء الحبيب المغضوب ، وعاهدته على لزوم الوطن ، وحرمت على نفسى مغادرته ، وتلك توبة مذنب قد تنفعه .

تحليل و نقـد

المجال الفكرى :

هذه نفثة غريب ، يحن إلى وطنه ، حنين مشوق إلى الحياة الناعمة الناعمة ، التى حرمها . فهو يدعو دمعه أن ينسكب ما شاء له أن ينسكب ، ويدعو فؤاده أن يذوب أسى؛ لأن الرزايا أطبقت عليه ضروبا وصنوفا ، لم ير لها مثيلا ونظيرا ، وتمكنى غربته فى — «بطليوس» غربى الأندلس — التى أبعدته عن طبيبه — محبوبته — فزادت مرضه ، وأشرفت به على الضنى ، وإنه ليتمنى أن تأتيه «القبول» من الشرق — من «قرطبة» حيث محبوبته — ففى نسماتها طبه ودواؤه . وفيها برد كبده الحرى .

وينظر — بعين الحقيقة أو عين الخيال — فيرى سفرا ورحلة ، فيطالب إلى المسافر الراحل ، وقد رآه يتابع السير ويحثه ليلا ونهاراً ، كأنه — مثله — يدفعه الشوق نحو الشرق ، و « قد سئم التغريب » ؛ يطالب إلى هذا المسافر الراحل أن يحيى عنه «الوطن الحبيب» و «الجانب المستوضح العجيب ، والحاضر المنفسح الرحيب » ، حيث المصانع «تجتذب القلوب» ، وحيث كان يلتقى محبوبته المترفة المرفهة ، خفية عن أعين الرقباء ؛ وتلذ أوقاتهما ، وتطيب ، وتسمح بالوصال.

ويراوده القلق فيسائل : أهذا الحبيب — الذى لم أسغ من بعده الحياة — هاجرى أم مؤنبى ؟ ! . وماذا يضره إذا قبل عذرى وكف عن ملامتى ، وإذا لم يدّع على ذنوبا تجرّمنى لديه ، وتغلق أبواب العذر والصفح والغفران فى وجهى . وبعده — إن سمحت الأيام بالأوبة وقرت العين باللقاء — أن يجهد فى استرضائه وإزاحة غضبه ، وفى لزوم الوطن ، وتحريم الرحلة عنه تائبا . و « قد ينفع المذنب أن يتوب » .

المجال التصويرى :

انكفأ الشاعر على نفسه — وقد آلمته الغربة وطحنته الفرقة — فجعل ، يستخرج دمعه ، وذوب قلبه ، ويتحسس ندوب أحشائه من الشوق ، ويتجرع العذاب والضنى ، ويصنف الرزايا التى أصابته ، ويندب علته فى غياب طبيبه ، ويستبرد حرارة كبده .

ثم يحمل السفر التحية إلى وطن المحبوبة المحبوب ، ويتمثل ماضى أنسه وشباب حبه فى تلك الديار التى « تجتذب القلوب » ، حيث كان يألف محبوبته الجميلة ، المشبهة الظبية ، المعتدلة القامة كالقضيب ، المرفهة ، ذات الثروة والحلى ، الحلوة الجنى ، الرطيبة البدن ، العذبة المراشف . وقد حرم أولئك ، فما يلتذ الحياة بعدها ، وما يدرى رأى محبوبته فيه ، والماسوابق فى تجريمه ، والادعاء عليه بالذنوب . ويتعلق بالأمل ، وأن تقر عينه بالأوبة ، إذن يتوب ، ويحرم على نفسه المغيب ، ليسترضى المحبوبة الغضوب .

المجال الفنى :

١ — ليس من شك فى أن « ابن زيدون » قد ملأ حب الوطن ومن فيه فؤاده . فهو دائما يحن إليه ، ويرق له ، ويسكب الدموع حسرات افراقه ، ويبكى ما خلفه فيه من جاه وحب وألاف . رجل فى مثل قدره فارق دياره على الرغم منه ، وكتب عليه أن يطوى أمجاده وهو يطوىء

الأرض ويسيح فى المشارق والمغارب مغتربا أو عابر سبيل ، ويلقاه علية القوم لإجلال والإكبار والإعظام ، ولكن هيهات أن يقوم ذلك بديلا عن رضا الأحبة ، وصحبة الألاف ، أو أن تنسيه الديار الجديدة ديارا طالما اختلف إليها ، وجدد فيها أنسه ، ونمى فيها حبه ، فزانت له توأم نفسه ، ومراد حسه ، ومجلى ناظره ، ومثار خاطره .

له - إذن — أن يناجى هذه الديار ، ويبكى نسيمها ، ورسومها ، وهو ينظم البكاء ولا يصنعه ، كما كان يصنع بعض الأوائل من الشعراء العرب ؛ لأن هذه الديار كانت ما تزال ماثلة له ، تنطق عن عواطفه ، مستحضرة أمامه انظر بيته * فى منه — ما أرى — الجنوبا * ، تجد هذه الجملة الاعتراضية تكشف رؤياه ، وتحد امتداد طرفه ، وتفضح مشاعره المتراثية أمام ناظريه .

٢ — فى الفقرة الثالثة يذكر القبول أو الصبا ، وقد قلنا : إنها ريح طيبة فى شبه الجزيرة العربية ، فإذا تحولت إلى الشمال الإفريقى أثارت الغبار ، ونشرت السموم ، فـ (ابن زيدون) ينفق من التراث الثقافى ، ولكنه يوافق موقعه ، فقد كان — حال إنشاد الأرجوزة — فى « بطليوس » الواقعة غربى « قرطبة » ، فهذه تقع شرقى موقعه ، فلتمكن قبلته ، ولتطب ريحها أيا كانت ، وليسمها إذن صبا وقبولا ، ناظرا إلى مهبها ، أو إلى قيمتها فى نفسه ، وما تؤديه عن وجدانه .

٣ — امتلأت الفقرة الخامسة بالتشابيه ، وأعطتنا أيضا صورة من الغزل الحسى ، الذى يدغدغ به الشاعر وجدان محبوبته ، إذ يغرى المرأة ويرضيها : الحديث عن جمالها ، واستقامة عودها ، مع تثنيه ولينه ، ورجحان أطرافه ، والاعتراف بحلاوتها ، وعذوبة مبسمها ، وإطراء زينتها ، ووسوسة حليها ، والاحتيال للقائها ، واختلاس السعادة معها .

٤ — فى الفقرة الرابعة يقول :

أما سمعت المثل المضروبا : أرسل حكيما واستشر لبيبا

وهذا « تلميح » إلى الشعر المشهور :

إذا كنت فى حاجة مرسلا فأرسل حكيما ، ولا توصه

وإن باب أمر عليك التوى فشاور لبيبا ، ولا تعصه

٥ — يبدو أن « ابن زيدون » يطمئن إلى سماع صوت الحلى ، وتطربه أصداؤه ، فهو هنا يقول :

« تشدو حمام حليه تطريبا »

ويقول فى موطن ثان :

فعيدك أنى زرت ؛ ضوؤك ساطع

وطيبك نفـــاج ، وحليك هادل

وفى موطن ثالث :

وتذكرنى العقدَ المرنَّ جمانُه مرنات وُرق فى ذرا الأيك هتف

النص التاسع (*)

دعابة

مايز الوزير الفقيه صاحب الأحكام والأحباس « أبو طالب بن مكي » إلى « ابن زيدون » بهذين البيتين :

يا بعيد الدار موصولا بقلبي ولساني
ربما باعدك الدهر فأدنتك الأماني

فكتب إليه « ابن زيدون » في الحين :

١ – لا افتنانٌ كافتناني في حُلَى الظرف الحسان

٢ – خصني بالأدب الله وأعلى فيه شاني

٣ – خاطري أنفذ – مهما قيس – من حد السنان

---

١ – افتنان : مصدر افتن في القول أخذ في فنونه . حلى (بالكسر أو الضم) جمع حلية الظرف (بالظاء المفتوحة والراء الساكنة) : الكياسة واللباقة والذكاء والحذق (وبالحاء مضمومة) جمع ظريف مخففا من ظرف (بضمتين) . والطرف (بالطاء المفتوحة) العين ولا يجمع لأنه في الأصل مصدر فيكون واحدا وجمعا قال تعالى « لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء » والطرف (بالطاء المضمومة) : جمع طريف .

٢ – شاني : شأني مسهلة الهمزة .

٣ – خاطري : الخاطر ما يخطر في القلب من تدبير أمر . السنان : حد الرمح ويطلق أيضا على السيف .

(*) ديوان ابن زيدون تحقيق كيلاني وخليفة ص ١٠٧ وتحقيق محمد سيد كيلاني ص ٧٩ .

٤ — أيها المرسل أطيا والمعنّى لامتحاني

٥ — هاك كى تزداد فى الآ داب علما بمكانى

٦ — قد أتتنا الطير تشدو بعض أبيات الأغانى

٧ — برَطانات قصَصَتْنا ما اقتضتنا من بيان

٨ — إن تغنى البلبل اهتاج غناء الورَشان

٩ — فتأدّى منه بيتًا غزل منفردان

١٠ — لمحب فى حبيب عنه ناء منه دان :

١١ — يابعيد الدار موصو لاً بقلبى ولسانى)

١٢ — (ربما باعدك الدهر فأدنتك الأمانى)

---

٧ — رطانات : جمع رطانة ، وهو الكلام بغير العربية .

٨ — الورشان (بفتحات) : ذكر القمارى .

٩ — تأدى (لازما) : بمعنى حصل ، ويقال تأدى الخبر إلى فلان أى انتهى .

تحليل ونقد

المجال الفكرى :

هذه واحدة من دعابات « ابن زيدون » التى قلنا : إن داعيته إليها الترف الاجتماعى والفنى ، وهى قائمة على الإلغاز : صديقه يرسل إليه بيتين من الشعر ، عرضا كما اتفق ، أو صنعهما لهذا الغرض ، يختبر بهما بديهة

صديقه ، ويستثير نشاطه ، ولقد يذهب الذهن فى معناهما أكثر من مذهب ، ولكن الذهن المتوقد يسلك إلى مقصدهما أقصر سبيل .

وقد كان « ابن زيدون » — على ما يبدو لنا هنا — صاحب هذا الذهن المتوقد ، فرصد بيتى صديقه للغزل ، وقدم لهما بحديث عن افتتانه هو ، واختصاصه بالأدب ، ونفاذ خاطره .

المجال التصويرى :

لم تخل هذه القصيدة على قصرها من التصوير ، فقد جسم الشاعر خاطره بنفاذه إلى صميم المعانى فى صورة حد السنان ينفذ إلى أعماق الجسوم ، وجعل غناء الطير رطانات من بنى الإنسان ، وجعل مجاوبته لشعر صديقه بشعر مثله مثلما يجاوب الورشان البلبل .

المجال الفنى :

رواية البيت الأول كما أوردناها :

لا افتنان كافتنـــانى فى حلى الظرف الحسان

و « الظرف » هكذا بالظاء فتكون نعتا للحسان سابقا عليها إن جعلناها مصدراً أو منعوتة بالحسان إن جعلناها جمعا ويحتمل أن تكون الرواية « الطرف » بالطاء وقد صحفت ، فتكون رديفة للعين والعيون أو جمعا للطريف كما أوضحنا فى البيان اللغوى ، ويكون معنى البيت على الأول : لا يفتن أحد مثل افتنانى فى إبداع الشعر الذى يشبه حلى الحسان الظراف . وعلى الثانى : لا يفتن أحد مثل افتنانى فى إبداع الشعر الذى يشبه الحلى الطريفة الحسنة أو إبداع الشعر الذى يحلو للعيون الحسنة .

فهرس الأعلام

فهرس المراجع

(أ) المخطوطات :

١ — ديوان ابن زيدون : نسخة برقم ٤٩٦ — أدب - دار الكتب المصرية .

٢ — ديوان ابن زيدون : نسخة برقم ٥٥٥ — أدب — دار الكتب المصرية .

٣ — ديوان ابن زيدون : نسخة برقم ٧٦ — شعر — المكتبة التيمورية .

٤ — ديوان ابن زيدون : نسخة برقم ٤٤٣ — أدب — المكتبة الأزهرية .

٥ — تسديس النونية الزيدونية — لأبى بكر محمد بن الحسن اللخمى نسخة رقم ٦١٧ — شعر — المكتبة التيمورية .

٦ — المقتبس فى تاريخ الأندلس — السفر الثالث — نسختان برقمى ٤٨٥١ و ٧١٩٩ — ح — دار الكتب المصرية .

(ب) المطبوعات :

١ — ابن بسام : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة — القسم الأول والقسم الرابع — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٩٣٩ م و ١٩٤٥ م .

٢ — ابن بشكوال : الصلة — طبع مدريد — ١٨٨٢ م .

٣ — ابن خلدون : المقدمة (العبر وديوان المبتدا والخبر) — لجنة البيان العربى — ط ٢ — الجزء الأول — ١٩٦٥م — والجزء الثانى ١٩٦٦ م .

٤ — ابن زيدون : ديوان ابن زيدون — بتحقيق كامل كيلانى وعبد الرحمن خليفة — مطبعة مصطفى البابى الحلبى — ١٩٣٢ م .

٥ — ابن زيدون : ديوان ابن زيدون — بتحقيق محمد سيد كيلانى — مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده — ط ٢ — ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٦ م .

٦ — ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب = تحقيق شوقى ضيف — ط ٢ — دار المعارف بمصر — ١٩٦٧ م .

٧ — ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد — النهضة المصرية ١٩٥١ م .

٨ — ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب فى أخبار المغرب — الجزء الثالث — طبع باريس — ١٩٣٠ م .

٩ — ابن قتيبة : الشعر والشعراء — الجزء الأول — دار المعارف بمصر — ١٩٦٦ م .

١٠ — أبو تمام : ديوان أبى تمام بشرح الخطيب التبريزى — تحقيق محمد عبده عزام — المجلد الثالث — دار المعارف بمصر — [١٩٥١ م] .

١١ — أبو نواس : ديوان أبى نواس — المطبعة الحميدية بمصر — ١٣٢٣ هـ .

١٢ — أحمد الإسكندري : مقالات بمجلة المجمع العلمي في دمشق — المجلد الحادي عشر — ١٩٣١ م .

١٣ — أحمد زكي باشا : ابن زيدون — مصر — ١٩١٤ م .

١٤ — أحمد شوقي : الشوقيات — الجزء الثاني — مطبعة مصر — ١٩٣٩ م .

١٥ — أحمد ضيف : بلاغة العرب في الأندلس — مطبعة مصر — ١٩٢٤ م .

١٦ — استانلي بول (ترجمة على الجارم) : قصة العرب في أسبانيا — دار المعارف بمصر — ١٩٤٤م .

١٧ — اميليو غرسيه غومس : (ترجمة حسين مؤنس) — الشعر الأندلسي : بحث في تطوره وخصائصه — ط ١ — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٩٥٢ م — و ط ٢ — مطبعة لجنة البيان العربي — ١٩٥٦ م .

١٨ — جودت الركابي : في الأدب الأندلسي — دار المعارف بمصر — ١٩٦٠ م .

١٩ — حسن جاد حسن : ابن زيدون (عصره / حياته / أدبه) — المطبعة المنيرية بالأزهر — ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م .

٢٠ — سيد نوفل : شعر الطبيعة في الأدب العربي — القاهرة — ١٩٤٥م .

٢١ — شوقي ضيف : ابن زيدون (من سلسلة نوابغ الفكر العربي) — دار المعارف بمصر — ط ١ — ١٩٥٣ م — و ط ٢ — ١٩٥٩ م .

٢٢ — عبد الرحمن شكري : ديوان عبد الرحمن شكري — منشأة المعارف بالاسكندرية — ١٩٦٠ م .

٢٣ – عبد الرحمن شكرى : مقال (أنواع النسيب والتشبيب فى شعر العرب) – المقتطف – ابريل ١٩٣٩ م .
٢٤ – على عبد العظيم : ابن زيدون – عصره وحياته وأدبه – الأنجلو المصرية – ١٩٥٥ م .
٢٥ – الفتح بن خاقان : قلائد العقيان – مطبعة التقدم العلمية بمصر – ١٣٢٠ هـ .
٢٦ – كامل كيلانى : نظرات فى تاريخ الأدب الأندلسى – القاهرة – ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤ م .
٢٧ – كامل كيلانى : تقديم وملحقات ديوان ابن زيدون بتحقيقه هو وعبد الرحمن خليفه – مطبعة مصطفى البابى الحلبى – ١٩٣٢ م .
٢٨ – كرم البستانى : شعر ابن زيدون – دار المناهل فى بيروت – ١٩٥١ م .
٢٩ – محمد السعدى فرهود : الاتجاهات الفنية فى شعر عبد الرحمن شكرى – مطبعه زهران بالقاهرة – ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .
٣٠ – محمد السعدى فرهود : قضايا النقد الأدبى الحديث – مطبعة زهران بالقاهرة – ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .
٣١ – محمد عبد المنعم خفاجة : قصة الأدب فى الأندلس – القسم الأول – مكتبة المعارف فى بيروت – ١٩٦٢ م .
٣٢ – المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب – المطبعة الأزهرية – ١٩٥٠ م .
٣٣ – نيكل : مختارات من الشعر الأندلسى – مطبعة الكشاف فى بيروت – ١٩٤٩ م .

فهرس الموضوعات

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٧٥٥ / ١٩٦٩